علي خيون

سلوة العشاق

رواية

سـلـوة العـشـاق

اسم الكتاب: سلوة العشاق . رواية

اسم المؤلف: علي خيون

© جميع الحقوق محفوظة

© copyright ninawa

١٠٠٠/٢٠٠٩م . ١٤٢٩هـ

سورية . دمشق . ص ب ٤٦٥٠

فاكس: ٢٣٢٢٥٤٠ ١١ ٩٦٣ + هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣ +

مستودع: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ + موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org

ninawa@ninawa.org

www.ninawa.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج و تصميم الغلاف والطباعة

مطبعة دار نينوى . القسم الفني

القياس ١٤,٥ × ٢١,٥

عدد الصفحات: ١٤٢

لوحة الغلاف:الفنان فائق دحدوح

• لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

علي خيون

سلوة العشاق

رواية

Author: ALi Khayon
Original Title :Lovers Solace

First Edition
٢٠٠٩ -١٤٢٩

Dar ninawa
Damascus - Syria

وكُلُ محبٍ أحدثَ النأي عندهُ

سلوّ فؤادٍ - غير حُبكِ - ما يسلُو

زهير ابن أبي سلمى

وقالوا: لو تشاء سلوت عنها

فقلت لهم: فاني لا أشاءُ

قيس بن الملوح

«.. عاقبة كل حب إلى أحد أمرين: إما إخترام منية

وإما سلو حادث...»

ابن حزم الأندلسي

- ١ -

قال الشيخ الجليل صاحب كتاب (مختار الصحاح)، وهو يبحث في تصريف الفعل (سلا) إنه من باب سما وسلى عنه بالكسر (سلياً) مثله ومعناه (سلاه) من همه (تسلية) و(أسلاه) أي كشفه عنه.

والسلوانة بالضم (خرزة) كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا وأسم ذلك الماء (السلوان) بالضم أيضاً، وقيل: السلوان دواء يسقاه الحزين فيسلو.

هذا كل ما يعرفه (عامر الرسام) عن السلوانة التي اضطر تحت ظرف ضاغط، أن يبحث عنها وجلاً حزيناً لدى (أم ذياب) العرافة في بيت قميء من بيوت (تل محمد)، في صيف جاف، عقرت فيه السماء عن أن تحمل مطراً ففقد بسبب ذلك، هدوء نفسه وراحة باله.

عرف بعد لأي، أن ثمة من يسمي تلك الخرزة (سلوة العشاق) إذ كانت معروفة من الشاعر قيس بن معاذ، ويقال قيس بن الملوح،

ولقبه (المجنون) لذهاب عقله بشدة عشقه، وهيامه بليلى، وهو من أشعر الناس، وقد تحدى (سلوة العشاق) أن تسليه حتى موعد الحشر، وذهب في الأمر مذهباً مثالياً فلسفياً بعيد الغور فحل أزمته من مشيئة النسيان والسلوى، فبقي وفياً للذكرى، ووضع نفسه وجهاً لوجه بإزاء الموت، حيث لا خيار ثالث سوى السلوى أو الموت... فكان أن مات من أجل أمر عرفه فيه القاصي والداني، كما عرف الناس المتصوفة والفلاسفة والزهاد وأصحاب الكرامات وأصحاب العقائد والمذاهب بمواقفهم إذ قضوا نحبهم ولم يلقوا ما في أيديهم.. نُعِت أكثرهم بالجنون أو السحر أو الكذب، لكنهم تشبثوا بما لديهم ولم يغير أحدهم ما في نفسه أو يبدل رأسه.. فلِمَ السلوان؟ وكيف؟! أيكون مجنوناً ليسلو قضيته وموقفه وأشواق روحه؟! هو العاقل الذي تعلقت روحه بمن تريد فعاش ومات دون ذلك؟!.. إنه يقسم قسماً عظيماً، أن لا يسلو. ولا عبرة بمن قال أن هذه الأبيات من شعر غيره ونسبت له:

أما والذي أبكى وأضحك والذي

أمات وأحيا والذي أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى

أليفين منها لا يروعهما النفرُ

فيها هجر ليلى قد بلغت بي المدى

وزدت على ما لم يكن بلغ الهجرُ

ويا حبها زدني جوى كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

بيد أن المحققين الذين جمعوا الشعر، ممن لم يسمعوا بسلوة العشاق، استغربوها فاستبدلوا العشاق بالأيام، ظناً منهم أن (الأيام) هي التي تسلو المرء العاشق عن طيف حبيبته، وليس لتلك (الخرزة) العجيبة، التي ظفر بها عامر الرسام بعد خمسين عاماً من الغربة والضياع والصبر.

عامر الرسام، الذي قضى شبابه في مشغل فني صغير، يتوسط زقاقاً ضيقاً في محلة (تل محمد) ببغداد الجديدة، شرقي بغداد القديمة، لم يكن يعرف عن (السلوانة) أي شيء، ولم يكن قد سمع بها، لكنه حين تعرض لظرف ضاغط، كاد فيه يفقد عقله هياماً، قصد منزل امرأة عجوز يدعوها الناس (أم ذياب)، كانت تسكن خربة تطل على حافة مياه راكدة آسنة تدعى (شطيّط) تصغيراً للشط، واضطر إلى أن يخفض رأسه منحنياً إلى مستوى حزامه لكي يعبر كوة تفضي إلى مكان تلك العجوز التي أشيع أن لها صلة بالجن والعياذ بالله، وأنها إذا جاء الغروب وتصاعدت رائحة البخور من كوخها، تحدثهم ويحدثونها فتعمل مقابل أجر، من عمل الشيطان ما تفرق به بين الرجل وزوجه.

كان عامر الرسام، يعرف كل ذلك، لذا وجد صعوبة في الاقتراب من بيتها، بدا له الأمر محرجاً حقاً، هو الرسام الذي عرفته بغداد الجديدة كلها برسومه الجميلة، وإن كان في أغلب

الأوقات يضطر إلى النقل الحرفي لمشاهير الفنانين، فيبيع من لوحاته الكثير سواء وضع توقيعه عليها أو لم يضع، لكنه كره ذلك، وعاد إلى محليته وصدقه.

فما أن تنطق باسمه حتى يقال لك إنه (الرسام) مع حركة في الشفتين واليدين تدل على شهرته، لكنه هنا، وبعد دقائق من جلوسه قبالة المرأة، أيقن أنها لا تعرف عنه شيئاً فشعر بارتياح عميق.

كان يغطي رأسه ونصف وجهه بيشماغ، يتأمل حركة المرأة وهي تنثر على بساط عتيق، عدة خرز كانت في كيس، مررت أصابعها فوق خرزة بذاتها وقالت وهي ترنو إليه بعينين متعبتين:

- قلبك مثل النار..

وأردفت بحزم وهي تزم شفتيها مثل طبيب يشخص مرضاً خطيراً لدى مريضه:

- سقتك الحب فهمت بها وعليك بماء السلوان لتسلو..

وأضافت:

- تعال في يوم ماطر..

لزم الصمت غير مصدق ما يسمع، فكررت المرأة بحزن عميق كمن تشفق على حال الفتى الشاحب إزائها:

- يلزمك سلوة العشاق وإلا..

تساءل ذاهلاً بعينيه، فقالت وهي تجمع أحجارها:

- وإلا الجنون أو الموت..

وعجب الرسام حين قالت المرأة مبتسمة عن بقية أسنان أتلفها الدخان الرخيص:

ـ ستكون مثل المجنون.. أسمعت بالمجنون؟!

تساءل من فوره وجلاً نافضاً عنه صمته:

ـ المجنون؟!

فبسطت المرأة يديها وقالت مستغربة:

ـ قيس صاحب ليلى.. ألم تسمع به؟!

وكررت باستغراب شديد:

ـ قيس وليلى!!

شعر بضيق شديد، كانت به حاجة إلى هواء نقي، استغرب من نفسه، معلوماته ضحلة عن المجنون... أحقاً جن بسبب عشقه؟! أيمكن أن يجن هو بسبب العشق؟! رأى نفسه وهو يقطع الأزقة عائداً وقد جن عليه الليل في هيئة مجنون، فذُعر، وأدرك أن صدمة كبيرة ستحل بمعارفه أن فوجئوا به ذات يوم، يدور في الأزقة شبه عار، لا يعرف عن نفسه أو عن سواه شيئاً... ماذا عن محترفه ولوحاته واسمه؟!

سينقلب من عاقل يشار إليه بالبنان إلى فاقد للأهلية في لغة القانون لا يصح التعاقد معه أو الإرث أو الوصية أو الزواج أو الحياة السوّية التي يحياها الناس من حوله.

نثر كتبه وسط الغرفة بحثاً عن مصادر تشفي غليله عن المجنون... قد يصدق أن الشاعر جُنّ، لكنه لا يصدق أنه مات...

مات؟! قالها بصوت عال وهو يلتهم السطور غير مصدق ما يقرأ... كانت الكتب التي عثر عليها في مكتبة صغيرة تحت سينما البيضاء في بغداد الجديدة، تسهب في الحديث عن عشاق ماتوا بسبب الحب، واستغرب بشدة، بعد أن طالع كتب العشاق كلها، كيف أنه اهتدى إلى رسم تلك اللوحة التي أسماها «الساحرة» قبل أن يقرأ هذه الكتب بأعوام، كانت تلك هي محاولته الأولى في الرسم، وبداية وعيه وموهبته التي كانت مثار إعجاب مدرسيه وأهله، الفتاة الحسناء التي تبتسم ابتسامة خفيفة لكنها واثقة وتجلس على أريكة وإلى جانبها قنديل مضاء، تلك التي فطن إلى أن فيها من وجه ساحرة وأن فيها من وجه ليلى الكثير.

وشعر بارتياح واطمئنان، حين وجد من بين المؤلفين من يؤكد أن العشاق ليسوا بمجانين، إنهم أصحاب قضية وموقف.. وكل قضية وموقف إنما هما حركة في المكان وفي الزمان.. المجنون إذن لم يكن مجنوناً.. بل حرك الصحراء لتروي للأجيال قصة عشقه... وقد يجود بنفسه عفيفاً فيرتقي إلى منزلة الشهداء.

هو ذا الأصمعي يقول عن قيس: (لم يكن الشاعر مجنوناً.. ولكن كان فيه لوثة..).

رحم الله الأصمعي، كان منصفاً، ترى ما الذي يقوله - طيب الذكر - ابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء:

- «كان - قيس - جميلاً ظريفاً راوية للأشعار حلو الحديث..».

صاح الرسام بصوت عال:

ـ الحمد لله..

وراح يواصل القراءة:

ـ «.. وكانت ليلى تُعرض عنه، وتقبل على غيره، فأقبلت عليه فقالت:

كلانا مظهرٌ للناس بغضاً

وكلٌ عند صاحبه مكينُ

ثم تمادى به الأمر، حتى ذهب عقله، وهام مع الوحش، فكان لا يلبس ثوباً إلا خرقة، ولا يعقل شيئاً إلا أن تذكر له ليلى، فإذا ذُكرت ثاب وتحدث لا يُسقط حرفاً».

قال الرسام مبتهجاً يحدث نفسه: ألم أقل إنه عاقل وصاحب موقف.. المجنون لا يثوب إليه رشده هكذا أو يقول شعراً جزلاً.. أقسم بالله أنه عاقل وصاحب قضية..

حتى إن ركض عارياً، فدليل عقله أنه يصحو إن اقترب من موضوع قضيته، ودليل سلامته أن ليلى لم تصفه بالجنون وهي أعلم الناس به.

وقد روى شيخ من بني مُرّة، أنه رأى أبا قيس وأخوته وأن الأب قال له:

ـ والله لهو كان آثر هؤلاء عندي، وأنه عشق امرأة من قومه، والله ما كانت تطمع في مثله، فلما أن فشا أمره وأمرها، كره أبوها أن يزوجه إياها بعد ظهور الخبر، فزوجها من رجل آخر،

فجن أبني وجداً عليها وصبابة بها.. ويؤكد الشيخ أن قيس لم يأكل ثلاثة أيام متتالية ثم غدوت بعد ذلك وغدا أخوته وأهل بيته، فطلبناه يومنا وليلتنا، فما أصبناه، فلما أصبحنا، أشرفنا على وادٍ كثير الحجارة، فإذا هو ميت بينها، فاحتملوه ودفنوه.

قال الرسام وهو يمسح بإصبعه دمعة طفرت من عينه:

- مات إذن نتيجة (إباء الطعام) حين بلغ به الإحباط واليأس من نيل مراده غايته.. وما فكر ساعة في السلوان.

- ٢ -

ـ أجمل الحب ذلك الذي فقدناه..

قال في سره تلك العبارة، وحث الخطى منحدراً من السدة الترابية إلى زقاق ضيق طويل، وانتظر حتى هبطت الفتاة التي تتبع خطواته بضيق واضح، بينما راح ذهنه يستعيد على نحو سريع، تاريخ هذه الكتلة المتراصة من التراب التي يطلق الناس عليها اسم (السدة) إذ وضعت للحد من طغيان الفيضان واندفاعه المجنون الذي هدد بغداد منذ أوائل الخمسينات.

قال مستنتجاً يحدث نفسه من دون تركيز:

ـ « سدود.. وحدود.. لولا السدود لطغى الماء ولولا الحدود لعمت الفوضى..».

كانت الفتاة تلهث، كانت في السن التي تبلغ فيها الفتاة مبلغ النساء، جسدها بدا طويلاً مشدوداً مثل جسد مهرة، كانت تتبعه صامتة، يائسة مسلوبة الإرادة، تجر خطواتها خلفه بلا روح كأنها مسيرة بقوى خفية، وحين اجتازا مدخل السوق

وابتلعهما فم الزقاق الممتد مثل أفعى كبيرة، أدركت بحاسة لا تخطئ، أن جمالها الساحر كان يثير المارة، وأن النظرات الظمأى، تطاردها، متفحصة مفاتنها، متسائلة عن سر هذه المخلوقة الجميلة التي نزلت بغتة على زقاق بسيط منزوٍ وناء.

تباطأت وهي تتفحص صوراً جميلة لرسام يعرض لوحاته في محل صغير في مدخل الزقاق، تطلعت باهتمام وشغف إلى اللوحات الجميلة وقرأت لافتة كبيرة تحمل اسم (عامر الرسام)، توقفت ذاهلة، مبهورة بما ترى، غير أن قدوري أيقظها بمفاجأة أخرى مثيرة، حينما قال بصوت عالٍ:

- لقد وصلنا..

كان في الثلاثين، ممتلئاً في غير ترهل، وعلى قدر عال من الوسامة، وكان بمقدور أي إنسان فطن أن يدرك صلة القربى بين الرجل والفتاة، بمقارنة الوسامة التي يحملها بالجمال الباهر الذي تنطق به ملامحها البيضاء.

ليس من الصعب أيضاً، أن يخطئ ذلك الخيط من الحزن الذي يغلف مثل هالة، وجهيهما، بل ذلك الجرح النازف الذي تنطوي عليه أعماقهما عبر خطواتهما المرتبكة وصمتهما المتأمل الحائر.

أحست بضيق في التنفس، كان هواء أيلول ساكناً مشبعاً بروائح ثقيلة، وكانت الفتاة، تتفحص بعينين مطفئتين الزقاق الآسن، مطت شفتيها مستغربة مما تراه، وقالت بريق جاف، أول مرة، منذ غادرا البصرة مساء أمس:

- ما اسم هذه المنطقة؟!

شعر بصعوبة في اقتناء الكلمات، تشاغل بإشعال سيجارة، وبصق شيئاً مراً علق بشفتيه، قال كمن يتأوه:

- تل محمد..

سألت الفتاة من فورها:

- تل؟!

وارتطمت بكتفه على نحو مفاجئ حيث توقف عند بوابة عريضة قديمة لبيت واسع، تحسست أسنانها التي آلمتها، من غير أن يعتذر، ظل يدعوها بنظراته إلى الدخول، مسحت الفتاة نقطة دم سالت من بين أسنانها، وأطرقت لتبصق قطرة أخرى على عتبة الباب، كانت تنظر إليه، كأن بها حاجة إلى كلمة مواساة، غير أنه تجاهل أمرها ودخل مسرعاً فتبعته إلى فناء كبير، لمحت في جهته اليمنى حنفية ماء أقيمت على حوض صغير، ورأت عدداً من الغرف القديمة تحيط بالفناء مع رواق ضيق، انتابها ضيق شديد كأنها تساق إلى سجن كئيب، وهي تنظر إلى قدوري يعالج قفلاً صغيراً في أعلى بوابة طليت بالأزرق الفاتح لغرفة تقع في أقصى اليمين، فتح قدوري باب الغرفة وقال للفتاة بجفاء:

- ادخلي...

أغلق الباب بيده مثل سجَّان، ومضى إلى غرفة أخرى مجاورة، بينما طرحت الفتاة عباءتها على سرير قديم، وسارعت إلى النافذة ففتحتها، جعلت تتطلع إلى شجرة نبق كبيرة تتوسط الدار، وقد

أسقط الخريف أوراقها الذابلة تحتها، بينما تقافزت العصافير على أغصانها مصدرة زقزقة متواصلة كأنها في عراك وصراع لا ينتهي.. بصقت دماً وفركت شفتيها بباطن كفها. كان الوقت ضحى وكانت تشعر بالدوار بعد سهر ليل طويل قطعه القطار الصاعد إلى بغداد من البصرة، عضها الجوع، لكنها فقدت شهيتها للطعام فلم تأكل شيئاً طوال الليل، حاول شقيقها قدري أن يقنعها بتناول لفة لوبياء مسلوقة وطماطم، فذهبت جهوده أدراج الرياح فلقد اكتفت بقدح ماء، وظلت صائمة في احتجاج عميق، يقظة مسهدة ترقب وجه أخيها المتعب الذي نام طوال الطريق، فلم يلحظ دموعها التي انهمرت لساعات وهي تجتر كل ما جرى لها، غلبها النوم عند الفجر، لكنها قاومته، خُيّل إليها أنها أغفت قليلاً رأت نفسها في حلم مشوش تحمل إلى مغتسل الموتى، وتلف بالكفن وتودع في القبر، هالها أنها جلست خارج القبر، تبصر أسمها وقد ثبت عليه بالآجر.. المرحومة ساهرة حميد، بكت نفسها، وسرعان ما فتحت عينيها المتعبتين، فرأت أخاها يغط في النوم إلى جوارها ورؤوس الركاب تتدلى على الجوانب والقطار يركض كمن يهرب.

جلب انتباهها السلم القديم في نهاية البيت المفضي إلى السطح، رأت فيه منفذاً يطل على سماء بغداد التي جاءت إليها مرغمة، مدت رأسها لتتأكد من غرفة شقيقها قدوري المجاورة، أدركت أنه سيلحظها لا محالة، لو أنها سارعت إلى السلم،

استغربت تأخره عنها، خمنت أنه ربما وجد زوجته نائمة أو أنه شعر بالتعب والدوار من رحلة طويلة فنام من فوره.

تلفتت حائرة تتأمل جدران الغرفة، ودارت حول المكان مثل طائر في قفص، جلست على سرير يبدو أنه أُعد لها، وضعت رأسها بين يديها، تذكرت (هاني) فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت من بين دموعها بصوت مسموع:

ـ لقد أبعدوني عنك يا هاني.. ليس الأمر بيدي..

كيف حالك من بعدي؟!

وتساءلت حائرة:

ـ ها أنا في المنفى بعيدة عمن أحب.. لكنني خائفة من آثار ذلك على نفسي وروحي..

- ٣ -

تسللت إلى السلم في نهاية المنزل، كان الوقت قد صار ظهراً وبدايات الخريف تبعث روائح خانقة يضيق لها الصدر، لم يكن في البيت الواسع من أحد، كانت الغرف مغلقة، جعلت تعدها واحدة واحدة فكانت سبع غرف، أسرعت في الخطو على السلّم، وأفضى بها إلى فضاء السطح الواسع، تحيط به ستارة ليست عالية، رأت من مكانها، السماء الواسعة، والبيوت الواطئة التي تحيط بالمنزل من ثلاث جهات، استطاعت أن تبصر من الناحية الغربية، السدة الترابية العالية الطويلة التي قطعتها مع أخيها أول مرة، تعزل المساكن عن سكة قطار البضائع، ومن جهة الشرق، خلف البيوت القميئة، لاح لعينيها نهر من مياه آسنة.. وقالت بأسف:

- كنت أظن أن بغداد أجمل من البصرة..

وأضافت:

- هل يصدق أحد أن في بغداد مياهاً آسنة كما في البصرة..

تفحصت البيوت الضئيلة، والسوق الضيقة المجاورة، والزقاق الذي يطل عليه البيت، فلفت انتباهها المرسم القريب، مدت رأسها تتأمل لوحة كبيرة عرضت عند المدخل، تصور منظراً طبيعياً لأشجار نخيل كثيفة يشقها نهر هادئ ويقف فلاح بمجدافه وسط زورقه متأملاً الغروب..

همست:

ـ كأنها البصرة..

كانت السماء تبدو لعينيها شاحبة باهتة الزرقة، والبيوت محنية على نفسها كعشاق مهجورين، أحست بانقباض وضيق، سألت نفسها إن كانت هناك بغداد أخرى غير هذه التي تراها.. وتساءلت بصوت مسموع: ترى متى ومع من أرى بغداد كلها؟!

قطع عليها تأملها، شاب خرج من المعرض وبيده فرشاة، رفع رأسه على نحو مفاجئ فتبادل معها نظرة عجلى، وبحركة رشيقة دفعه إليها إحساس فائق بالجمال، حرك أصابعه باتجاه اللوحة، وبما يوحي أنه يعرضها على الفتاة التي بدا واضحاً أنها معجبة بالمنظر، فابتسمت خجلة، بادلته نظرة بنظرة، وانسحبت مسرعة إلى السلم..

في داخل الفناء، دفعها إحساس مبهم كأنه الفضول، لأن تسترق النظر إلى المرسم، دنت من الباب الرئيس، وعثرت مصادفة على ثقب صغير يمتد منه سلك وضع من أجل سحب ذراع البوابة تسهيلاً لفتحه، نظرت عبر الثقب وسرعان ما ابتسمت حين

وجدت الرسام ما فتئ يتطلع إلى السقف بحثاً عنها، تفحصت وجهه وقوامه، أعجبتها طريقة تصفيفه لشعره، كان وسيماً، وبدا لعينيها جريئاً، سحبت ذراع الباب، وأطلت من فرجته تحت وطأة شعور بالزهو أو ربما الغرور، فاتسعت ابتسامة الرسام وخطا إلى أمام بجرأة وإقدام، لكنها أسرعت فأغلقت الباب وعادت مسرعة إلى غرفتها.

- ماذا يريد؟!

همست مع نفسها، ودنت من مرآة تتأمل ملامح وجهها.. سوت شعرها بالمشط، دفعها الفراغ وحب الاستطلاع إلى أن تطل من السطح مرة أخرى.. بلغت السلم، تلفتت حائرة، ولسبب ما، أحست انقباضاً في صدرها وعادت إلى الغرفة وأغلقت على نفسها الباب.

جلست مطرقة على حافة السرير، سألت نفسها بصوت مسموع:

- الجمال نعمة أم نقمة؟!

لم تجد جواباً مقنعاً فألقت برأسها على الوسادة وراحت نظراتها تتفحص سقف الغرفة الواطئ، كانت الرطوبة قد أثرت في طلائه فتآكل في جوانب الغرفة، وبدا حديد السقف صدئاً، أما العناكب فقد اتخذت من الزوايا بيوتاً لها.. بم يختلف هذا السقف عن ذاك الذي كان يظلها في البصرة، كانت الزواحف تقلق نومها هناك، وفي الهزيع الأخير من الليل، تسمع بوضوح

صوت الفئران تركض تحت الأسرة أو تقرض شيئاً.. كانت تنتظر مطلع الفجر بصبر نافد فإذا أطل بصيص النور من النافذة، هرعت إلى المطبخ، وفتحت المذياع القديم، وجعلت تسمع أغاني الصباح وتراقب إناء الشاي والبيض وهو يُسلق في الماء الحار.

كانت من تلك الأغاني، تعرف أن الحب خطير، ولكنه حلو.. وكانت بعد كل نظرة متأملة من شاب عابر، تجعلها تطيل النظر في المرآة.. تشعر أنها مقبولة مرغوبة ومع محاولتها لكبح جمال الغرور، إلا أن في نفسها طباعاً غريبة، تدفع بها إلى المضي في تجارب صغيرة تذوقت بفضلها طعم الحب مرات عدة. فلقد عاشت نزوات مراهقة متعبة، كانت آخرها مع ذلك الشاب الشاعر الذي قدم من بغداد إلى بيت أخيه، لقد أحبت قصائده الجميلة، كادت تجن في حبه، كان صوته وهدوئه وكلماته تسحرها.. واستطاع ذات مرة أن يمسك وجهها بين كفيه وأن يطبع على شفتيها قبلة طويلة، سكنت خلالها بين يديه كأنها تلفظ أنفاسها، وحمدت الله في اليوم الثاني أن العلاقة انتهت عند هذا الحد، فقد اختفى دون وداع، عاد إلى أسرته وتركها ممزقة تذرف الدموع لفراقه، عافت نفسها القراءة وألقت بكتبها بعيداً، كانت تردد في يأس:

ـ لقد انتهيت.. انتهيت فبماذا أدعو عليك يا عبد الله منصور.. حطمتني أيها الـ...

لكنها تزدرد بقية الجملة فلم تطاوعها نفسها أن تنال منه

بسوء. بقيت لعامين متتالين، تقرأ أشعاره، وتتقصى أخباره دون جدوى.. ويوم طفح بها الكيل، وسألت عنه، علمت أنه سافر للعمل في بعثة صحفية خارج العراق، فأحست أنها تسعى خلف سراب، لكن طيفه كان يلازمها خارج إراداتها، مزقت ما تركه من أشعار، وراحت تضرم فيها النار، أحرقت صورته، منعت نفسها من أن تسمع الأغاني التي تذكرها بالهجر والقسوة ولذة الحب، ومع أن كل ذلك إلى جانب اليأس، خفف كثيراً من ثقل صدرها، إلا أنها لم تجد سلوى حقيقة، إلا يوم التقت هاني، وأيقنت أن حباً جديداً زحزح حبها القديم وأينع كشجرة ذابلة تدفق من تحتها على حين غرة نبع من الماء العذب.

كانت متعبة مرهقة، فأخذها النوم، وسرعان ما رأت كأنها عادت إلى البصرة، تضع كفها في كف هاني، وتمضي معه إلى كورنيش يطل على شط العرب.. كانت تحدثه عما جرى لها في رحيله، أما هو فقد بدا لعينيها ذابل الوجه ينشد أشعاراً مؤثرة كانت قد سمعتها من عبد الله وتساءلت في عجب وذهول كيف تسنى له أن يحفظ أشعار ذلك الشاب الذي اختفى على حين غرة ولم تعد تعرف عنه أي شيء؟!

فتحت عينيها على طرق خفيف على الباب، كانت زينب زوجة أخيها قدوري تدعوها إلى العشاء،.. فأجابت وهي تتثائب:

- لا أريد.. لست جائعة..

عادت إلى الوسادة تستعيد شيئاً من تفاصيل الحلم، واضطرب

صدرها حين علمت أنها صارت في بغداد التي يفصل بينها وبين البصرة أكثر من ستمائة كيلو متراً.

- ٤ -

بكت الأم وضربت على فخذيها بكفيها عدة مرات بقوة، وراحت تهز رأسها حائرة، وهي ترقب بطرف دامع ولدها المتكور على نفسه مثل إنسان مريض أو مقعد، عصبت رأسه بفوطتها السوداء، وأعطته قرصاً مضاداً للصداع، وحاولت عبثاً أن تثنيه عن صيام طارئ، فقد شهيته للطعام وعزف عن أي شراب سوى الماء.

ظلت طوال الليل ساهرة عند رأسه، وهو يحدق في سقف الغرفة ويرسل أنيناً متقطعاً مثل إنسان محموم، سمعته في الهزيع الأخير من الليل يبكي ويردد أغنية شعبية شائعة، يخاطب فيها المغني عينيه، يحذرهما من أنهما سيصابان بالعمى إن لم يكفا عن البكاء ويقسم لهما بأن ذلك سيحدث لا محالة، وكان شكله وهو يربط رأسه بفوطة أمه يثير الضحك، بيد أن العجوز كانت تبكي وتردد وهي تسترق إليه النظر:

- «راحوا... راحوا.. أخذهم القطار وراحوا..».

كان في لحظات الهدوء، يسترجع ذكريات أيام حلوة، تجمعه بساهرة، منذ أن ملأت ناظريه بوجهها الأبيض المشرق وعينيها الواسعتين مثل عيني غزال، وظفائرها المتدلية على صدر ناهد لم تستطع العباءة سترهما.. خرجت ذات يوم تريد سمكاً، كانت تريده طازجاً لأنها تركت في الدار زواراً من أقاربها، ولأن أمها شغُلت بهم فقد اضطرت للمجيء إلى السوق القريبة من منزلها.. توقفت مصادفة في بوابة محل هاني، الشاب الممتلئ حيوية، والذي يحمل وسامة ظاهرة، وقد ترك صدره مفتوحاً عن شعر كثيف يغطي صدره، أطرقت خجلة، حين أحست اختلاجاً في صدرها لا تعرف على وجه التحديد مصدره، فاغتنم تلك الفرصة السانحة وقال بلهجة صياد ماهر يعرف أين ومتى يضع الطعم لأسماكه، ويدرك جودة صيده، فقال متسائلاً:

- لا أظنني رأيتك في محلتنا من قبل؟!

تبسمت وهزت رأسها:

- هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها إلى السوق.

- هل تسكنون منذ زمن.. كيف لم أرك من قبل؟!

- سكنا قبل شهر..

- إكراماً لجمالك خذي ما تشائين بلا مقابل!!

تبسمت مرة أخرى محرجة وقالت بصعوبة:

- أشكرك..

كانت تود أن تغادره، ولكنها كانت محرجة، لا تعرف

كيف يمكن أن تتخلص من شباكه الآسرة، قال وهو يضع عدة سمكات في سلة صغيرة:

- ما اسمك؟!

- ساهرة..

فقال بجراءة ابن سوق محترف وخبير بالتعامل مع الغير:

- اسمي هاني.. ساهرة.. أريد أن أراك مرة أخرى..

التقت عيناها الواسعتان بعينيه ذات النظرات المؤثرة العميقة، ولاح على شفتيها طيف ابتسامة كأنها تقول له: نعم.. سأراك..

اختفت مسرعة وهو يتابعها بنظراته، وقد أحس باضطراب لذيذ لم يستشعره من قبل، بينما كانت هي تستغرب تلك الضربات السريعة التي تكاد تسمعها واضحة، تصدر عن قلب جرّب الحب من قبل.

بعد أيام شهدت شوارع البصرة ومنتزهاتها قصة حب عنيفة، كانت فيها ساهرة تهرب بشتى الحجج لتلتقي حبيب القلب، وكان هاني.. يهمل معظم عمله، ويهيم بها، وحين أيقن أن ليس بمقدوره الاستغناء عنها وأن حبها امتلك عليها عقله ووجدانه، ذهب بها إلى منزله وقدمها إلى والدته التي سرت كثيراً حينما رأت قمراً يمشي على الأرض كما وصفتها، وكانت لحظات آسرة، خاصة، مفعمة بالأشواق لا يمكن أن تُمحى من الذاكرة، حين قادها إلى غرفته ليريها مكانه، صوره، أشرطة التسجيل التي جمع فيها كل أغاني الحب، وضغط على المسجلة

لينطلق صوت ناظم الغزالي في أغنية عذبة « قل لي يا حلو.. منين الله جابك..».. احتضن جسدها البض، فتهاوت بين يديه على السرير، كان يتأملها كمن يتفحص تحفة فنية نادرة، وحين لثم ثغرها وهو يستنشق أنفها، كأنه يستنشق دخان سيجارة متقدة ليهدئ أعصاباً متوترة، استرخت بين يديه كأنها فارقت الحياة، لكنها انتفضت من مكانها فزعة، حاول أن يتشبث بها ليبقيها إلى جانبه، فسقطت ساعتها من معصمها إلى الفراش، نهض بعضلاته القوية، ورفع جسدها بالمقلوب، ممسكاً بقدميها كأنه يمسك سمكة حية، انحسر ثوبها، فتفحص بعينين نهمتين عاشقتين، سروالها الداخلي الصغير، وفخذيها وبطنها كمن يصطاد سمكة ثرية، كانت ترفس، لكنه دس أنفه وفمه في شوق عارم، وسقطا معاً على الفراش يلهثان، نهضت فأعادها ورأسه تحت ثوبها، سقطت الساعة على الأرض وتحطم زجاجها.. انتزعت نفسها منه بصعوبة وقالت متوسلة وقد شحب لونها:

ـ هاني.. لقد تأخرت..

خرجت مضطربة وبقيت ساعتها لديه ليصلحها، كم اجتر تلك الحادثة في خياله، وكم استعادها فيما بينه وبين نفسه.

ارتفع أذان الفجر، فنهضت العجوز لأداء الصلاة، لكنها اقتربت من ولدها لتطمئن عليه، فوجدته يقظاً يحدق في السقف، جلست على حافة السرير وسألته:

ـ هاني.. لم تنم يا ولدي..

قال بصوت جاف:

- لا أستطيع..

- هل أنت بخير؟!

فقال بصراحة ليرتاح:

- أحس كأن روحي تخرج من صدري.. قد أموت يا أمي في أية لحظة أو أجن.. لا أدري ما الذي جرى لي..

سألته المرأة قلقة:

- ما الذي تحسه يا ابني؟!

اعتدل في فراشه وقال شارد الذهن كأنه يروي حلماً:

- أحس كأن روحي سُلبت مني.. كأنني لا أملك إلا هذا الجسد المتعب.. كأني كبرت عشرين سنة مرة واحدة.. لا أحتمل فكرة أن ساهرة ليست في البصرة.. لا أحتمل أن مسافات شاسعة تفصل بيني وبينها حيث اختفت في مدينة كبيرة أخرى..

سكت لحظة وأضاف:

- الذي يؤلمني هو أنهم رفضوني.. إنها سافرت من دون مقاومة.. ضحت بحبنا الكبير..

قالت المرأة موضحة:

- ماذا تريدها أن تفعل.. ليس الأمر بيدها يا ولدي.. لعلها الآن تتعذب هناك أكثر مما تتعذب أنت هنا..

قال بانفعال وهو يطيح بالفوطة التي في رأسه:

- كنت أظنها تهرب معي.. تقاوم.. كنت أظنها تلقي بنفسها

تحت عجلات القطار لا أن تصعد إليه وكأنها تغادر في سفرة أو نزهة..

فقالت المرأة:

ـ شقيقها الصغير حمودي كان السبب، فقد وشى بها عند شقيقها الأكبر قدوري.. ليتك لم تأخذ منها الساعة..

قفز من مكانه كمن لدغ وصاح:

ـ الساعة؟!

قلّب الوسائد واستل من تحت الفراش ساعة يد قديمة، كانت عريضة وليست مما ترتديه النساء عادة، لثم سيرها كأنه يقبل معصمها وكفها البضة.. وردد كأنه سيفارق الحياة:

ـ ساهرة.. حياتي.. روحي..

انتابها قلق وخوف من أن يكون ولدها العزيز قد فقد عقله أو يكاد يقذف بنفسه إلى الهاوية، وتحت ضغط ذلك الخوف والقلق، خطرت في بالها فكرة بل عدة أفكار كان أقربها إلى نفسها أن تصحبه إلى أحد الأولياء الصالحين.. تسأل الله العفو والعافية لابنها، فيشاركها الدعاء إلى الله سبحانه فهو قريب يجيب دعوة المتقين.. أو تقوده إلى أحد المنجمين أو العاملين في مجال كشف الطالع وأسرار الروح.. إذ لابد أن تجد حلاً، تنقذ فيه فلذة كبدها من ضياع محقق.

همست له بالفكرة التي أيقنت أنه سيرفضها، لكنه قال بوجه شاحب ذابل كليمونة تركت تحت الشمس:

- افعلي بي ما تشائين..

كان يتأمل وجهها كمريض يتأمل وجه طبيبه أملاً في علاج سريع وواصل مؤكداً حاجته إلى العلاج:

- رأسي لا يهدأ.. صار فارغاً إلا من حكايات ساهرة وعينيها وذكرياتها..

وأمسك بكلتي يديها وقال وجلاً من مصير مظلم:

- أريد أن أنساها يا أمي.. سأجن.. صدقيني.. سأدور في الشوارع مثل أي مجنون..

صنع خيال المرأة صورة مرعبة لولدها وهو في هيئة من مسه الجنون، صورة كثيراً ما تراها في سوق البصرة، لرجال ذهبت الأحداث بعقولهم، فتركهم الله سبحانه آية على نعمة من نعمائه وهبها للإنسان وجعلها هدى له على طريق الخير والشر، طوبى لمن حافظ عليها ورعاها وتعساً وويلاً لمن غامر بها فأتلف نعمة لا تقدر بأي ثمن. قالت ذلك في سرها وأجهشت بالبكاء ثم تمتمت:

- كأن عيناً وأصابت هذا البيت، فأخوك سافر منذ سنوات ولم أره وها أنت عليل لا أعرف لك علاجاً!!

- ٥ -

طارت حمامات كانت تحط على سياج السطح، دارت دورة كاملة في الفضاء المفتوح وعادت لتحط على سياج مجاور كأنها تنتظر ذهاب ساهرة لتعود إلى مكانها، كانت السطوح تكتظ بالأسّرة، لفتت انتباه ساهرة شعلة من نار، ظلت حائرة عما تعنيه في اتقادها المستمر، هي ليست حريقاً، كانت الشعلة عالية ملتهبة تنبثق من أعلى مصافي النفط في منطقة الدورة، كانت بغداد حولها عالماً بسيطاً فقيراً، وحانت منها التفاته إلى الزقاق، فابتسم الرَّسام ولوَّح بكفه بجرأة جعلتها تجفل متراجعة، ماذا يريد منها؟! كم تحب هذه الرسومات.. إنها عالم غريب من الخطوط والألوان والرؤى.. عامر الرسام.. طالعت اسمه ورددته، كأنها تتذوق قطعة حلوى.. عادت فاقتربت من السياج فلم تجده، تأملت الصور المعروضة، لكن أين اختفى؟ اقتربت أكثر، فبوغتت به يختبئ في الجانب الآخر ويتابع اهتمامها.. ابتسم فلم تستطع كتم ابتسامتها لكنها أسرعت فتركت السطح.. كان

الوقت غروباً، وحين هبطت إلى الأرض، رزح البيت كله تحت وحشة ثقيلة.

كانت زوجة أخيها زينب ترصف الكراسي قرب شجرة النبق، وتضع محملاً في مكان مناسب لجهاز التلفزيون، ذلك ما دأبت عليه بعد الغروب كانت تتسلى ببذور البطيخ المقلاة، وتتفرج على ما تجد به الشاشة الصغيرة من أغانٍ ومسلسلات وبرامج، تتحدث مع من تجالسها في كل شيء وعن كل شيء، وها هي ذي تجد في ساهرة رفيقة تناسب طبيعة تلك الجلسات، فنادت عليها لتسرع، وحين مثلت بين يديها قالت وهي تسحبها من ثوبها لتجلس:

- انظري.. بنت الحته..

تساءلت ساهرة:

- ماذا؟

- مسلسل جميل.. تابعي هذه الحلقة وسأحكي لك القصة من بدايتها.. الحتة باللهجة المصرية تعني الحارة!!

سألت ساهرة شاردة الذهن:

- أية قصة؟!

- قصة الحب.. قصة بنت المحلة أو الحارة!!

تابعت الأحداث.. إنه الحب مرة أخرى يتعرض إلى محنة، ها هي الصبية العاشقة تجبر من ابن عمها على ترك حبيبها المهندس الشاب الذي بدا في تلك القفار ضائعاً يكاد يدفع حياته ثمناً

لحبه، سالت دموعها بصمت، لكنها ظلت حائرة في سر هذه المشاعر التي يسمونها الحب.. من أين لها أن تعرف ما هو الحب.. لم يكن لدى أهلها في البصرة تلفازاً. وها هي تعجب إذ ترى في مصر من يشعر بما تشعر به من هذا الشعور القوي تجاه شخص بعيد.. بل غريب فهو ليس من الأقارب.. فما سر هذا الحب.. سمعت المهندس يحدث رفيقه المهندس عن مكنونات نفسه.. كان في خضم اضطرابه يشرح لصاحبه، خفايا النفس التي تهفو إلى شخص نحبه ونهتم به، حتى لو كان الاقتران به ضرباً من المستحيل.. فالحب ـ كما يقول ـ معطيات جمالية اختزنتها الذاكرة في مرحلة من مراحل العمر، تتفجر لحظة أن تقع أعيننا على المحبوب.. معطيات عاطفية تثب فجأة من اللاشعور إلى الشعور فتجد مهادها المختزن من الذاكرة الجمالية في شخص المحبوب.. فيسير العاشق في عشقه سابحاً في نظرته الحالمة بعيداً عن المحاكمة المنطقية لواقع المحب والحبيب.

نهضت غير قادرة على متابعة المأساة، بينما كانت زينب مشغولة تماماً بمتابعة الأحداث.

عند الغرفة التي تجاور المدخل الرئيسي، توقفت، وجعلت تتأمل عبر البوابة المشرعة، ما تفعله شعاع صاحبة الدار.. أيقنت من حركتها السريعة أنها تعد الزاد لزوجها الذي يعمل حارساً في مصنع الحديد على الجانب الآخر من سكة القطار خلف السدة.

وقفت عند باب الغرفة، فقالت شعاع:

- ادخلي..

كانت الغرفة جميلة، تنبعث من أرجائها رائحة طيبة، الجدران مغلفة بالورق الملون، فهي ليست مثل غرفتها المعتمة التي علت جدرانها رطوبة شتاءات مضت، وتزخر زواياها برائحة أيلول الخانقة، هنا، عالم آخر، لا يمت لتل محمد كلها بصلة، كان زوجها يقف مثل تلميذ مطيع، يحني قامته الطويلة ملتقطاً ما قدمت له من طعام كأنها تريد أن تصرفه بأسرع ما يكون، كان وجهه نحيلاً وكانت نظراته الساكنة الذابلة تشي بحزن أو هم ثقيل.. ترى أصحيح ما روته زينب عن الرجل؟! ربما.. فلقد فهمت من ثرثرة زينت أن زوجة الحارس هي صاحبة العقار كله، وأنها ذات طبع حاد.. تسيطر على زوجها على نحو يخالف ما تعارف عليه الناس والمجتمع، فهي إن اشتد بها الغضب تصدت له وجهاً لوجه، فإن تمادى في تعنيفها بالكلام رفعت نعلها وضربت به الرجل، بينما يقف محرجاً لا يرفع يده في وجهها، فشاع أنها سقته شراباً مسحوراً جعله واهن العزيمة إزائها، وقيل أنه أحبها بجنون في صباه، فلما تزوجها وهي ذات قلب قاس، تصرفت معه تصرف طفل مدلل نزق لا يقيم أي اعتبار لمن حوله، وقيل أن عنفها وشدَّتها نتيجة إحباط نفسي وشعور بالذنب، وشاع وهو الأرجح، أن الرجل تزوجها وهو فقير وهي ثرية منحدرة من عائلة تتاجر بالعقارات، وكان هو ابن حارس ليلي يعمل لدى أبيها، فظلت تعيره بماضيه، وبدلاً من التمرد الذي لا يطيقه اختار

الإذعان واستمرأ الإهانة والذل، ومارس بما تبقى من رجولته حراسة مصنع الحديد، حيث وجد في الغرفة المخصصة له في احترام العاملين له مع دماثة خلقه وهدوئه راحة لم يجدها في أي مكان آخر.

ومع تاريخ طويل من العشرة، كانت هي ملتزمة بتقديم الطعام له، أما السجائر التي يدخنها بشراهة فهي من معاشه الشهري ومن معونات العمال.

وفي المنزل، كما في المنطقة كلها، يعرف الجميع طباع المرأة التي يكنيها الناس بأم غائب، لأنها عقيم لم تلد، ويضربون المثل بعقلها التجاري، ويتمادى أعداؤها فيصفونها باللئيمة لبخلها وعزلتها وخبثها، فلقد كانت تعرف كيف تتعامل مع الناس والأشياء، وإذا ضغط عليها شخص تحدثت إليه بلغة القانون وكأنها درسته دراسة أكاديمية مختصة، فكما أنها احتفظت بسلمان الحارس زوجاً لها لأنه يلائم طبيعتها المتمردة، فإنها كانت تختار مستأجري غرف بيتها موسمياً، بدراية وفطنة، كانت كأنها تخضعهم للمقابلة والاختبار، ولا تؤوي إلا العابرين، للتحكم بالإيجار، ولا تميل إلى العوائل ذات الأطفال، وتفتح ذراعيها مرحبة بالعُزَّاب الذين يفدون في شهر أيلول أو تشرين الأول للدراسة ويغادرون إلى محافظاتهم مع نهاية حزيران، فإذا عاد بعضهم في العام الذي يليه فأنها تختار ما يناسب مزاجها وتعتذر لمن سلك سلوكاً لا يناسبها.. ومزاجها يكون رائقاً جداً

مع الطلبة والعمال والعسكريين الذين ينحدرون من عوائل متمكنة فهي تستغل كل شخص حسب حاجتها.

من الموسم السابق، لم تستثنِ إلا اثنين، قدوري وزوجته زينب، لأنه عسكري يأتي في إجازة دورية فتبقى زينب بمثابة مسؤول عن تنظيف وإدامة الدار، وفتاة ممرضة اسمها برهانة لأنها تعمل في وجبات ليلية ونهارية فلا يكاد أحد يحس وجودها في الغرفة التي تقع تحت السلم، وهي تسد مسد الطبابة المصغرة للمنزل في حالة حدوث أي طارئ لدى النزلاء.

خرج سلمان، سلّم على الفتاة وأخذ طعامه ومضى صامتاً، فصاحت شعاع من مكانها:

- سلمان..

استدار الرجل مذعناً فقالت آمرة:

- لا تأكل ما يقدمه لك العمال كالمحروم.. سمعت؟! لقد وضعت لك ما يكفي..

هزَّ الرجل رأسه موافقاً، وتسلل خارجاً بينما التفتت شعاع إلى الفتاة وسألتها:

- أين رآك عامر؟!

استغربت الفتاة سؤالها فقالت موضحة:

- من؟!

- عامر الرسام؟!

واصلت بلسان غير متحفظ:

ـ إنه يسأل عنك بلهفة وكأنه يهيم بك من أول نظرة..

ضحكت عن أسنان ذهب وقالت:

ـ آخ منكنّ يا بنات.. متى وصلت ومتى شغلت الرجل؟!

بسطت ساهرة يديها حائرة وقالت:

ـ لا أعرف شخصاً بهذا الاسم..

فقالت المرأة ساخرة:

ـ تعجبني براءتك..

أطرقت ساهرة لا تدري ما تقول بينما نهضت شعاع وجلست إلى جانبها وقالت بصوت هادئ:

ـ منذ زمن لم تسكن البيت صبية جميلة مثلك..

وأضافت وهي تتأمل ملامح الفتاة الفاتنة:

ـ على الرغم من مشاكل البنات فإنني أحبهن..

وجعلت تمسح على شعر الفتاة التي استكانت لحركتها مثل حمامة.. ما لبثت أن اغرورقت عيناها بالدموع وقالت كأنها تحدث نفسها:

ـ كنت في صباي جميلة مثلك..

فقالت ساهرة:

ـ أنت جميلة الآن يا خالة..

فواصلت المرأة:

ـ كنت عاشقة.. كان شاب اسمه منذر يهيم حباً بي.. إلا أن أبي لم يوافق على اقتراني به.. قال إنه طامع بثروتي.. لا أدري..

ربما كان الشاب طامعاً بما لديّ لكنني أحببته.. وحين حاولت أن أهرب معه.. سجنني والدي شهراً في غرفتي.. وبعدئذ.. عقد قراني على ابن الحارس لأنه جرَّب أمانته وحماه من سرقات ولصوص.. سلمان صار حارساً كأبيه لكنني لم أبادله الحب.. لم أشعر به.. عشت معه والنار تأكل قلبي على سلوك والدي رحمه الله وغفر له ذلك.. لقد عبث بحياتي.. حطمها.. هل يغفر الله له ذلك؟!

وضحكت كأنها تبكي وقالت:

- ذكريات بعيدة.. ولكن للقلب أحكامه..

شعرت الفتاة بألفة خاصة مع المرأة، واغرورقت عيناها بالدموع هي الأخرى وقالت بلا تحفظ:

- حكايتك يا خالة هي حكايتي نفسها..

استفسرت المرأة بانتباه:

- كيف؟!

- أبعدوني إلى هنا عن حبيبي.. تركت روحي هناك في البصرة وجئت معهم جثة بلا روح.. ليتهم سجنوني شهراً وأطلقوا سراحي لكي أراه.. إنه لا يعرف الطريق إليّ.. ولا أدري ما الذي حصل له فهو يحبني بجنون.. مسكين هاني..

قالت المرأة التي كانت تنصت بانتباه:

- الزمن كفيل بمحو الذكريات.. لكن الجرح لا يلتئم.. سيظل ينزف بمجرد أن تترد على مسامعك أغنية أو كلمة أو اسم

أو ذكرى مكان.. لو كنت مكانك لذهبت إليه..

أطرقت صامتة كمن ترغب في البكاء وقالت:

ـ كنت صبية مدللة وجميلة والكل يقول أنت شعاع واسمك يدل عليك.. وكنت مصممة على ألا أتزوج إلا بعد قصة حب عنيفة..

وأضافت بتأثر وحزن:

ـ قصص الحب في الأفلام العربية والمسلسلات تستهويني.. وكلما رأيت عاشقين ساعدتهما..

وواصلت وهي تشير بإصبعها إلى غرف البيت الصامت:

ـ تعرفين كم شهدت هذه الغرف من قصص الحب.. بعضها وصل درجة المأساة.. لو كانت الحيطان تتكلم لتصدعت وهي تروي ما رأت..

وأطلقت آهة حرى وقالت للفتاة:

ـ ما زلت شابة.. وها هو القدر يخبئ لك قصة حب جديدة خلف هذا الباب.. قرأت في عيني عامر الرسام معاني حب كبير أشعلته نظرة..

اطمأنت الفتاة إلى المرأة، لذا سألتها باهتمام:

ـ لماذا يا خالة نهيم حباً بأناس لا نعرفهم؟! ما معنى هذا الحب الذي يصيب القلب غفلة مثل مرض معد؟!

قالت المرأة وقد بوغتت بالسؤال كأنها تسمع به أول مرة:

ـ سبحان الله.. صحيح كلامك.. المرأة تحب رجلاً لا تعرفه من

قبل.. والرجل يحب امرأة لا يعرفها ويغدو هو الحياة وهو الأمل..

نهضت وأدارت الراديو في أقصى الغرفة، وبحثت في المؤشر حتى عثرت على أغنية لأم كلثوم وعادت تهز رأسها بتأثر وقالت مستدركة كمن استنتجت شيئاً مهماً:

- هذه هي عظمة الحب.. فيه شيء من سر الحياة.. نحب إنساناً ونهيم به ولا نعرفه.. حاولي أن تفهمي.. هل عرفت ما أقصد.. لا أعرف كيف أشرح لك الأمر.. مثلاً.. مثلاً.. ذلك الشخص الذي أحببته ما اسمه؟

قالت الفتاة:

- هاني..

- هاني.. هاني.. أنت أحببته دون تدقيق في اسمه ومن يكون وماذا يعمل.. شيء في النفس والروح.. ربما تكمن بداياتها في الشكل.. العين أو الأنف أو الشعر أو الطول.. لا أدري ما زلت أذكر أن عينيّ منذر هما اللتان جعلتاني أهيم به.. كانت عيناه تتكلمان معي حتى لو لزم الصمت.. ساعدته حتى درس القانون.. كنت أدفع به إلى أمام دائماً لينجح.. وسأتزوجه وأرمي بهذا الحارس الغبي إلى الزبالة حتى لو بقي يوم واحد في حياتي!!

ابتسمت الفتاة وسألت المرأة:

- ألم تعرفي عنه شيئاً بعد ذلك.. ألم تلتقي به؟

أطرقت المرأة قليلاً، ابتسمت ابتسامة ذات معنى، قالت وهي تضرب الفتاة على كتفها:

ـ مازلت بريئة.. لا أدري كيف أشرح لك الأمر.. دعي ذلك لوقت آخر..

وهمست كأنها تحدث نفسها:

ـ تبدو بعض الأسرار محرجة حين تروى لصبية صغيرة..

نهضت متجهة إلى المرآة الكبيرة والفتاة تتابع بعينيها حركة مؤخرة المرأة البارزة، تأملت وجهها في المرآة وراحت تدلك عنقها بالمزيد من العطر.. تفحصت ملامحها بخيلاء، وسألت من مكانها:

ـ ساهرة.. هل أبدو جميلة؟

لم تجب الفتاة فقد سمعت طرقاً على الباب، وأسرعت شعاع وعادت تستقبل شخصاً أنيقاً في نحو الخمسين، دخل الغرفة بلا تردد، وسلّم على الفتاة، فقالت المرأة وهي تغمز بعينيها:

ـ كنت أنا وساهرة نتذكر ابن الحلال.. إنه منذر المحامي الذي حدثتك عنه.. إنه يتابع تصفية ما بقي من أملاكي..

وضحكت ضحكة عالية من غير مناسبة، وبدت سعيدة وهي تقوده إلى الدخل، تأملت الفتاة وجه الرجل، كانت عيناه واسعتين عميقتين لا يستطيع المرء مواصلة التحديق فيهما دون تأثر، لذا فقد انسحبت ذاهلة لما ترى من تفاصيل لقاء خاص، وأسرعت مرتبكة إلى الغرفة التي تأوي زوجة أخيها زينب، وراحت تحكي لها ما حدث بالتفصيل، فقالت زينب غير متفاجئة بما تسمع:

- قديمة.. حكاية قديمة.. تعرفها كل تل محمد ولكن من يتجرأ ويفتح الموضوع مع شعاع.. حتى الحارس المسكين يستقبله كأنه من بقية العائلة..

وهمست:

- الناس هنا تقول إنه ليس محامياً.. هي من تقول ذلك.. لتخيف الناس بالقانون!!

أطرقت الفتاة صامتة تتأمل ما يجري، وسألت:

- متى يمتلئ المنزل بالمستأجرين.. كم أتمنى أن أراه مزدحماً.

قالت زينب بضيق:

- لا تستعجلي يا أختي.. سيأتون مع بدء المدارس.. وسوف تنزعجين من ضوضائهم..

- بل أستمتع.. يا ليتهم يأتون..

أغلقت شعاع باب الغرفة الرئيس، فهمست ساهرة مع نفسها «يقيناً أن والد شعاع نادم على ما فعل وهو في قبره..».

تحركت بدافع الفضول حتى صارت قبالة الباب، وأرهفت السمع، فلم تسمع أي صوت كأن الغرفة خالية أو كأنها يجلسان بصمت مطبق، لم يكن هناك سوى أم كلثوم تعيد بتأثر مقطعاً من أغنية طويلة.

قطعت المدخل إلى البوابة الرئيسية، فتحتها ووقفت على عتبة الدار، وفوجئت بعامر قبالتها وجهاً لوجه، كان محله مناراً بينما أغلقت الأبواب الأخرى وبدا الزقاق صامتاً.

همّت بالعودة، لكنه تحرك بجرأة ونفاد صبر كأنه كان ينتظرها منذ سنة، قال بصوت رقيق وهو يقترب:

ـ اسمك ساهرة؟

هزت رأسها مؤيدة وهي تتفحص ملامح وجهه التي بدت قريبة من ملامح هاني لولا أنه بلا شاربين.

تأهبت للعودة لكنه أحرجها باندفاعه، فقال بسرعة واندفاع وحماسة كمن يريد أن يقطع عليها طريق الهرب منه:

ـ اسمي عامر.. عامر الرّسام.. وبصراحة.. منذ رأيتك من هناك.. من السطح.. منذ أشرقت كالشمس على الزقاق كله.. أحسست أن المرأة التي كنت أنتظرها منذ أن بلغت مبلغ الرجال قد جاءت.. هل تؤمنين بالقسمة والنصيب؟!

كانت تستمع له وتنقل بصرها بين وجهه واللوحات التي خلف ظهره، معلقة عند واجهة محله المضاء، فانتبه لذلك وقال بلباقة وذكاء:

ـ لديّ لوحة.. هل تصدقين؟ لديّ لوحة.. اسمها «الساهرة».

التفتت نصف التفاتة نحو مرسمه، وواصل يقول:

ـ إنها ليست في الواجهة.. إنه اللوحة الوحيدة التي رسمتها بإحساس عميق.. رسمتها منذ سنوات ولم أبعها.. هل تحدث مثل هذه المصادفات يا ربي؟!

من يصدق أن «الساهرة» التي رسمتها تجلس مثل أميرة على أريكة عريضة وبقربها قنديل مضاء.. من يصدق أنها تقف أمامي

كما رأيتها بعين خيالي؟

سكت لحظة يزدرد ريقه وتابع وقد أغراه صمتها بالمواصلة وفي داخله تورق فرحة كبيرة بنجاحه في اجتذابها إليه:

- لعلك لا تصدقين.. من حقك ذلك.. تعالي إلى الداخل وانظري بنفسك.. أرجوك..

ألقت نظرة سريعة على الزقاق الذي بدا خالياً في تلك اللحظة وقالت محرجة:

- ليس الآن.. ليس الآن..

التقت عيونهما في نظرة طويلة، ابتسمت على أثرها وانسحبت مسرعة إلى الداخل. انطلقت ضحكة عالية من داخل غرفة شعاع، شعرت باضطراب وقلق لا تعرف مصدره، أسرعت إلى غرفتها، اضطجعت على سريرها، تستعيد كلمات عامر.. تُرى ما الذي يريده منها؟ أيعقل أن يكون قد اقتنع بها حبيبة وربما زوجة بهذه السرعة؟ ما حكاية اللوحة التي اخترعها كأنه يعلم بمجيئها قبل الآن؟ أهو متزوج أم ما فتئ عزباً؟ أتُجرب الحب مرة أخرى؟ وتردم في أزقة تل محمد قصة حب خلت بكل ما تحمله في داخلها من مشاعر الحنين والألم والانتظار؟ أتخون ذكرى هاني، ومن قال أن هاني ما زال يحبها حتى الآن؟ لعله مثل عبد الله الذي سرق قلبها وتوارى عن النظر.. وإذا بقيت تعيش على الذكرى مسلوبة الروح، فهل يجدي ذلك نفعاً، أتكرر قصة شعاع البائسة التي تنفذ إرادتها بضحكة صاخبة، تلك الإرادة التي عوقها ظرف

عبث بها وبمشاعرها، وبينما كانت ترفرف بين يديه مثل طير أمسكه صبي ذو طبع قاس، قالت:

- إنه يريد الزواج بي.. إنه يحبني..

عرف اسمه ومكانه فهرع إليه، وجده في الدار فاقتحم عليه المنزل، كان يشتعل غضباً فقال هاني لينقذ نفسه:

- أريد ساهرة..

وخانته الكلمات فقال بلا تحفظ:

- هي تحبني وأنا أحبها..

فقال قدوري والشرر يتطاير من عينيه:

- أتخدع البنت وتدور بها في الشوارع في محيط لا يرحم فتاة بعمرها.. أهذه هي الأصول؟

قال الشاب بسذاجة:

- مستعد للزواج منها اليوم إن أردتم..

انفعل قدوري ووجه صفعة قوية إلى وجه هاني:

- إن أردنا أيها السافل.. أنسيت ما بيننا أم أنك تتجاهل وتتغابى وتضحك على نفسك؟!

- عماذا تتحدث؟!

- أنسيت ما فعل والدك عبد الرحمن شرف قبل ثلاثين عاماً؟! أليس هو والدك؟! ألا تعرف أن التي تحبها هي ابنة الرجل الذي قتله والدك على ضفة الشط؟! إنها ابنة حميد كاظم الصابر.. أتذكر؟! فإن نسينا نحن فأعمامنا لن يغفروا ذنباً أو جريمة حتى

خارجي كأنها تنتقم من أبيها ومن زوجها الذي جاء بمثابة سد حاجز بينها وبين من تحب؟

أتفني عمرها في اجتياز مرهق لحاجز اجتماعي وإنساني وأخلاقي لا يجلب لصاحبه إلا ما يشين؟.. نعم، إن ذلك أمر شائن لا ترضاه لنفسها، ولن تقبل بديلاً لهاني، ستظل تنتظره، إنها تتذكر تلك الأيام التي مضت سعيدة، حالمة، كأن البصرة كلها كانت سعيدة بها، ولديها يقين بأن سجنها هنا لن يطول، وأن هاني سيطرق الباب ذات يوم فيخطفها مثل حكاية أسطورية ويعود إلى هناك، إلى مرابع الطفولة ومهاد الصبا.

بكت بحرقة، كان الألم يحز قلبها كخنجر صدئ، شعرت أن قلبها يؤلمها فعلاً، لا تعرف بم تصبر نفسها، وكيف تقطع أيامها وما معنى حياتها هنا في غرفة نائية كزنزانة سجن انفرادي.

فتح الباب، دخل قدوري، فسارعت إلى تجفيف دموعها محرجة، جلس قريباً منها يتأمل وجهها الباكي، وقال مستفسراً بحنق:

- أتبكين؟!

ظلت مطرقة صامتة، استرجعت وهي في حضرته، ما سببت له من انفعال وانزعاج هو المنفعل بطبعه، حين علم بموضوع الساعة من حمودي، وحينئذ أمسك بها مسكة من يصمم على خنق إنسان وإنهاء حياته، طالباً منها أن تدله على هذا الشخص الذي

إن جاء سهواً.

تماسك هاني المباغت بما يسمع، ولم يرد على الضربة احتراماً وهيبة، أما والدته التي لزمت الصمت طوال الشجار فقد خرجت من صمتها وصاحت:

ـ عماذا تحكي يا ابني.. إنه قتل خطأ وليس عن عمد.. كان الرجل في رحلة صيد؟!

تطلع إليها غاضباً فقال ولدها بتحد:

ـ أترفع يدك على والدتي أيضاً؟!

تراخت يدا قدوري، وقدَّر أن مواصلة الشجار لن يجدي نفعاً، فأسرع إلى الخارج، وحين وصل البيت أنزل عقابه الصارم بساهرة، أشبعها ضرباً واضطرها لأن تجمع ملابسها وتتبعه إلى القطار الصاعد إلى بغداد.

كان قدوري يزور البصرة بين الحين والحين، منذ أن أنهى خدمة العلم في البصرة قبل عام وتطوع مباشرة بصفة مقاتل دائمي في صنف القوات الخاصة التي تلائم مزاجه وطباعه، واستأجر غرفة في المنزل الكبير حين تنسب للعمل في معسكر الرشيد القريب من محل سكناه، فكان في أغلب الأحيان يأتي أو يذهب مشياً عبر السدة الترابية التي تربط المعسكر بمنطقة تل محمد.

لم يبق في البصرة غير أمه وأخته ساهرة وأخيه حمودي، ولقد حاول مراراً أن يقنع الأم بالرحيل معه إلا أنها أبت، كانت ذات طبيعة متحدية، فقد غادرها الزوج مقتولاً، فألتزم بدفع ما

يحتاج إليه البيت، وأبت المرأة أن تغادر وتترك المنزل، لكنها قبل شهر، تحولت إلى هذه المنطقة الجديدة، وكان قدوري في مجيئه بين آونة وأخرى، يحمل إليهم من بغداد ما هم بحاجة إليه، فكانوا يستقبلونه بفرح غامر، كان يطل عليهم بقامته الفارعة ونظارته الشمسية وملابسه الأنيقة، كما تطل ليلة العيد بعد صيام طويل.

- أتبكين؟

سألها قدوري فأفاقت من استغراقها العميق، فلم تجب، فقال وهو يغادر الغرفة:

- امسحي اسم هذا التافه من ذاكرتك وحياتك.. وخيرٌ لك أن تبدأي من جديد من أن تعذبي نفسك دون طائل.. ستجدين خيراً منه..

- ٦ -

ظلت كلماته تتردد في ذهنها بغموض:

- « خير لك أن تبدأي حياتك من جديد من أن تعذبي نفسك دون طائل...».

انتابها إحساس من يُذبح من الوريد إلى الوريد، كانت يائسة، وصدرها ضيق، وسهر الأيام الماضية يترك حول عينيها أثاراً واضحة من كدمات زرق.

في اليوم التالي، خفق قلبها بشدة وشعرت بألم في صدرها فانتابها قلق وخوف.. ظلت ساكنة حذرة يفترسها الذعر من أن يكون قلبها الذي تحمل الكثير قد أُصيب بمكروه.

خُيَّل إليها أنها بحاجة إلى ترويح نفسي وإلى نسيان صفحات الماضي كلها، نهضت ويدها على قلبها، وحين هدأ، وعاد ينبض كما كان، سوّت شعرها، وارتدت ثوباً جديداً، بدت جميلة وممتلئة، صدرها مرفوع، وقوامها مثل رمح، وشعرها المنسدل على كتفيها يصل إلى خصرها، قررت الخروج لترتاح من هذا

الضيق الذي يكاد يمزق أعصابها ويوقف نبض الدم في قلبها.

كان الوقت ضحى، وجدت عامر يجلس على كرسي في باب مرسمه كأنه ينتظرها بفارغ الصبر، هبَّ واقفاً فلم تستطع رد ابتسامة أورقت على وجهها.. لاحظت أنه ارتدى أحسن ما لديه من ملابس أو هكذا قدرت من أناقته المفرطة، وسمعته يقول بجرأته المعهودة التي صارت تحبها:

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً بالأميرة..

تقدمت نحوه وقالت بشيء من الارتباك:

- أين صورة ساهرة؟

خطا خطوات مسرعة داخل مرسمه، كان فرحاً غير مصدق ما يرى، وقف إزاء لوحة كبيرة، حين تأملتها انتابها شيء من الحزن، فقد رأت نفسها تجلس متعبة كمن سُلبت قوتها، تسهر على ضوء فانوس، سحب كرسياً وقال:

- تفضلي اجلسي..

ظلت واقفة، شاردة الذهن، تقرأ كلمة (الساهرة) تحت اللوحة وتعجب للمصادفة، سيطرت على دمعة كادت تطفر من عينيها، قالت وهي تجلس على الكرسي وتتأمل الألوان التي أمامها:

- إنها صورتي... أهي من خيالك حقاً؟

ابتسم بامتنان، سحب كرسياً آخر وجلس قبالتها وسألها طامعاً في مزيد من الحوار:

ـ أصحيح ما تقولين؟ أم أنها مجرد مجاملة؟

فقالت بثقة:

ـ أكنت تعرفني؟ مستحيل.. أنت لا تعرفني..

وأضافت:

ـ أنت فنان مبدع.. كيف تخيلتني هكذا؟

وابتسمت وهي تتأمل وجهه وقالت بشيء من السذاجة:

ـ ينقصك شيء واحد.. رسم العالم الكبير كما في الخرائط!!

فأجاب بتسرع غير حكيم:

ـ رسم اللوحات العالمية.. أليس كذلك؟! لا.. أنا ضد نقل لوحات أجنبية فهي لا تعكس بيئتنا..

وواصل بحماسة:

ـ انظري.. هذه لوحة كاتب العرائض وتلك لوحة صباغ الأحذية وهذه المرأة تبيع البخور وتلك تعجن وصديقتها تضع طعاماً للدجاج.. إنها بيئة بلدنا.. وسأرسم الحب الكبير، هذه المرة، من نظرة واحدة!!

ضحك وضحكت هي الأخرى، تطلعت في عينيه، بدت على ملامحها إمارات حيرة وتأمل وسألته بخبث ودلال:

ـ عامر.. ما بك؟!

ـ أهيم بك..

ـ أبهذه السرعة؟!

ـ لا تنسي أنني فنان..

وأردف بحماسة وجرأة:

- حبي لك ليس مثل حب أي إنسان عادي.. تتحولين في نظرة الفنان بهذا الجمال الذي تحملينه إلى تحفة فنية أو لأقل تتحولين إلى رمز.. إلى معنى..

ولما وجدها تصغي له غير مستوعبة ما يقول، راح يشرح موقفه بتفصيل أكثر:

- اسمعي ساهرة.. عندما يقدم لك إنسان وردة ماذا تعني؟!

- إنه يقدم وردة..

فرك جبينه بأصابعه وقال:

- الوردة تعني رسالة حب.. لأنها بألوانها الجميلة وعطرها الطيب.. تحمل ما يحمله الحب في الحياة من تلطيف لها وتخفيف لمتاعبها.. بدون الحب تبدو الحياة ثقيلة مرهقة..

قالت مستوضحة:

- ولكنها تبدو كذلك بسبب الحب..

سارع يقول:

- هذا إذا كان حباً فاشلاً..

أثارها الحديث في موضوع الحب فقالت طامحة في مزيد من المعلومات:

- كيف يكون الحب فاشلاً؟!

فقال عامر وهو ينتقي عبارات بسيطة واضحة، لكي تستطيع الفتاة فهمها:

ـ حين لا يكون متكافئاً.. أعني حين لا توجد أشياء مشتركة.. إعجاب متبادل.. رغبة.. لأن ذلك حين يكون مفقوداً واقترن الشاب والشابة بعقد الزواج اختفت الرحمة والمودة فإن لم يكن هنالك رحمة ومودة صارت الحياة جحيماً.. وقد يظهر ما هو خطير.. وأعني الجنوح.. جنوح العاطفة تجاه أشخاص نجد لديهم ما ينقصنا.. وعندئذ تحدث تلك الازدواجية المدمرة بين حياة تعاش ورغبات لا سبيل إلى إشباعها..

ضحكت ساهرة وقالت:

ـ لقد تأخرنا.. ولم أفهم من كلامك حرفاً واحداً..

فقال لها غير يائس:

ـ ساهرة.. لا يهمني أفهمت أم لم تفهمي.. فما بيننا من فارق العمر والثقافة شيء لا يمكن إنكاره ولكن جمالك هذا يلهمني الإبداع وسوف تكونين بعد مدة وجيزة مثلي.. بل تستخدمين مفرداتي ذاتها.. ألم تسمعي ما يقال من أن من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم؟! وأنت ستبقين معي العمر كله!!

ابتسمت بامتنان وقالت وهي تنهض:

ـ الآن فهمت بوضوح..

خرجت في ضيق شديد، تعمدت أن تهرب من عينيّ عامر الرسام، فلقد استيقظت فزعة من نومها وهاني يبكي بين يديها، كان يردد بحزن شديد: سأموت!!

اشتد التناقض في صدرها بين ذكرى هاني وبين عامر الذي

يحاصرها بحبه، ليس لها سوى قلب واحد، ها هي تفكر بهاني، تتذكره، وتتمنى العودة إلى مدينتها، إلى البصرة، تخيلته في سوق السمك، وقد نسي طيفها، غير أنها قالت في سرها.. محال أن ينسى.. واستبد بها اشتياق خاص لرؤياه، أغمضت عينيها، رأته يحتضنها ويقبلها بشوق، أم هاني انظري بطتي الحلوة.. كانت المرأة تبتسم وتدخن، شعرت باطمئنان لوجودها، لكن هاني أغلق باب الغرفة وسحبها إلى فراشه فبدت ساقيها مثيرة لعينيه، دفعته وقالت محذرة:

- سأنادي أمك..

من باب الدلال والمزاح الثقيل صاحت من مكانها:

- خالة أم هاني..

فجلس يضحك سعيداً وهو يواصل تقبيلها بظمأ، آه.. ها هي الذكريات تحاصرها.. سمعت صفير القطار فودت لو تركت نفسها على السكة حتى يأخذها بين قضبانه وينتهي بذلك عمرها الذي لا نفع فيه.

لم تلتفت، ولم تبتعد عن السكة، فقدت كل إحساس بالخطر كأنها تسير في نومها، ما جدوى حياتها، أتستطيع أن تبدأ من جديد كما يريد شقيقها.. هنالك كارثة بانتظارها، فإن صح ما قالته زينب من أنه يخطط لاقترانها بعسكري معه اسمه جبار فإن الأمر سيؤل إلى نهاية بائسة، وإن تركت نفسها لعامر، فإنه قد تمنحه الأطفال ولكنها لا تمنحه الحب، وما عسى أن

يكون موقفها حين يحط هاني ذات يوم منحدراً من السدة الترابية، فيجدها تغرق في حب جديد.. لقد ماتت يوم أخذوها عنوة من مهاد حبها وموطنه في البصرة.

صاح القطار بقوة، أحست به يقترب فعلاً، خفق قلبها، ازدردت ريقها بصعوبة وهي تتطق بالشهادتين، فوجئت بكف قوية تحضنها من خلف وتسحبها بعيداً عن السكة بينما يعبر القطار مسرعاً يهز الأرض هزاً.

سقطت على الأرض وإلى جوارها عامر يلهث متعباً، وأسرع ينهض وهو ينفض ملابسه ويردد بذهن شارد:

- لماذا.. لماذا؟!

تجمع الصبية على السدة يرقبون ما حدث، فسارع إلى حملها عن الأرض وسار بها حتى الشارع العام وهناك استوقف سيارة أجرة وابتعد بها عن المكان.. أمسكت بساعة يده وقالت بقلق وارتباك:

- كم الساعة؟!

- العاشرة والنصف..

- لا بد أن أعود قبل الواحدة ظهراً..

- حسناً.. حسناً.. ولكن لماذا؟! لماذا يا ساهرة.. كدت تموتين؟ لقد تبعتك لأحدثك وفوجئت بما تفعلين!!

كانت حديقة الأمة في ساحة التحرير، جميلة، تظلها الأشجار، وفي كازينو منزو في جانبها الشمالي، جلسا متقابلان..

ما فتئ ذاهلاً، كانت حزينة، ساكتة، لا تعرف ما تقول.. دارت عيناها حول المكان قلقة متوجسة وقالت:

- بغداد جميلة ولكن المكان مكشوف هنا.. قد يرانا أخي..

نهض من فوره، قادها من يدها وقطعا ممرات حديقة الأمة، كانت مطرقة حزينة، قطع ساحة التحرير وعبر بها إلى مدخل شارع أبي نواس، كان الشارع يزدحم بالكازينوهات والمقاهي وأماكن تناول المشروبات الروحية ومحلات بيع الأسماك المسقوفة، كان يقطع الرصيف ويقرأ في لافتات المحلات المغلقة وقت الضحى..

كانت أغلبها مخصصة للرجال.. وقفت تتأمل رجل يبيع السمك ويوقد النار للشواء، قالت ذاهلة:

- هاني..

فسألها عامر من دون أن يتبين الأمر:

- ماذا قلت؟! أتريدين سمكاً..

أدارت رأسها متألمة طاردة الذكرى وقالت:

- لا.. لا..

وحثت خطاها إلى جانب خطواته حتى بلغا كازينو عائلي، واختارا مكاناً منزوياً يطل على نهر دجلة، وحين رأت اهتمامه بها، ولكي تطرد هذا الألم الذي يعتصر صدرها قالت بشيء من المرح وإن بدا مفتعلاً وغير طبيعي:

- ما أجمل هذا المكان.. ما أجمل بغداد.. أشكرك.. لقد رأيتها

أخيراً..

ابتسم بامتنان فقالت بفرح ونزق مفاجئ:

- أريد أن ترسم لوحة لهذا المنظر ولجلستنا هذه..

وواصلت وهي تترك كفها على الطاولة تحت كفه..

- عامر.. اكتب تاريخ اليوم.. أريد لحياتي أن تبدأ معك من هذا اليوم.. أشعر بأنني ولدت اليوم..

فقال عامر والفرح يطل من ملامحه كلها:

- وأنا كذلك..

أخرج قلمه وكتب على ورقة صغيرة، وهي تتابع السطور جذلة:

« عامر وساهرة.. هنا في كازينو دجلة الخالد وفي هذا اليوم ولدا من جديد.. وسيظل حبهما خالداً إلى الأبد..».

وضع إمضاءً فوق اسمه وأعطاها القلم وقال لها وقعي قبالة اسمك.. فوقعت ورسمت قلبين صغيرين يمر بينهما سهم، فشطب الرسم ورسم وردتين مفتوحتين لنور الشمس.. وقال:

- لا أحب رسم السهام.. قلوبنا تفتحت للحب كما يتفتح الورد..

- ٨ -

تجمعت غيمة بيضاء كالقطن ونثرت مطراً في باحة المنزل، فقفزت ساهرة وهي تفتح ذراعيها بسعادة غامرة مثل طفلة تتأمل غيمة مبكرة في الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول، حملت رائحة شتاء قادم مفعم بكل ما يحفل به الشتاء من أجواء منزلية دافئة ستحرم منها الآن.. اختفت ابتسامتها على حين غرة، وانكفأت إلى الداخل.

وفي المساء ، سمعت صوتاً في الغرف المجاورة، فعلمت من زينب أن الغرفة التي تقع تحت السلم قد شُغلت من امرأة عجوز وابنتها الشابة دلال الطالبة في دار المعلمات.. وعقبت زينب على الموضوع متبرمة:

- ها قد جاء الشتاء وجاءت إزعاجات الطلبة..

كان بدل الإيجار زهيداً في غرفة متواضعة في أزقة تل محمد، مما يجعلها مغرية للطلبة والعسكريين والعمال ذوي الدخل المحدود، وكانت المنطقة فوق ذلك سوقاً رخيصة للمواد الغذائية

والملابس فضلاً عن موقعها القريب حيث تقف في الصباح عدة سيارات صغيرة تحمل السكان إلى مناطق متفرقة من بغداد بأسعار زهيدة، بل كانت السيارات لكثرتها وقلة الركاب تستعمل مساعد سائق يتعلق بباب السيارة وينادي على الركاب، كانوا يطلقون عليه (سكِن) بكسر الكاف وهي تخفيف واختصار لمفردة (سكند) الإنكليزية وتعني الشخص الثاني أو المساعد، وكانت شعاع، تضحي بأجرة الصيف حين تترك الغرف فارغة على وفق عقلية تجارية ماكرة، لكي تستطيع زيادة الأجرة سنوياً للمستأجرين الجدد، يكاد الأمر يشمل قدوري، لولا أنه يحمل إليها من حانوت وحدته العسكرية، طبقات البيض وعلب المعجون وصمون الجيش الذي تحبه كثيراً مع الشاي وتعطي منه للحارس في خفاراته الليلية، وفوق ذلك فإن قدوري كان بلسانه الحلو، يعزز غرورها بمجاملاته التي تكاد تكون غزلاً مقبولاً، فظلت تشعر حياله بشيء من الفتور كلما همت بمطالبته بزيادة الأجر، وكانت تتابع خطواته الرشيقة وقوامه الفارع وكأنه واحد من بقية أهلها..

قالت ساهرة لزوجة أخيها:

- زينب من الأصول أن يكون طعام الغداء أو العشاء هذا اليوم علينا.. تلك حقوق الجيرة.. أليس كذلك؟

أيدت زينب الفكرة، وهرعت ساهرة لترحب بالجار الجديد ولتخبرهم أن غداءهم يصل إليهم ترحيباً بهم.. كانت متشوقة لأن

ترى دلال، وحين دخلت، هالها ما بلغته أم دلال من عمر كبير، أما دلال فكانت طويلة، وجهها جميل، أبرز ما فيه فمها الصغير بشفتيه المكتنزتين، لكنها بسبب طولها وضعفها، بدت هزيلة، ممسوحة الصدر، ترتدي أحذية بلا كعب، كانت يتيمة الأب، أما شقيقها الوحيد الذي يتكفل بالنفقات فكان مصوراً متجولاً يُدعى غافل وهو يكتفي بما يرسل من مبلغ، كأنه لا يريد أن يرى أحداً فكان يعمل في النهار وفي الليل ويسكن في استديو التصوير الذي يعمل عنده طبَّاعاً للصور.

شعرت ساهرة بالارتياح، مبعث هذا الشعور إنها وجدت صديقة في مثل عمرها.. لكنها تركت المدرسة ولم تعد إليها مذ فصلت بسبب الغياب في حين تواصل دلال دراستها بتفوق في معهد المعلمات.

عادت إلى غرفتها، فاستعادت صوت أخيها وهو يردد «ستجدين خيراً منه».

والتفتت إلى دلال التي عادت لتجلس إلى جوارها وسألتها:

- هل أحببت ظاهر المعلم بهذه السرعة؟

قالت دلال:

- هو من أحبني.. لكن عمله في السياسة يقلقني..

- كيف؟!

- قال لي أحبك لأنني أحب العراق وسأكون حريصاً عليك حرصي على وطني..

وأضافت:

ـ قال لي ظاهر أن العراق مستهدف منذ مئات السنين ولم يستقر لأنه غني وذو حضارة كل شيء فيه يلفت الانتباه.. تاريخه وكنوزه..!!

قالت ساهرة محتجة:

ـ وما علاقة ذلك بموضوعنا..

قالت دلال:

ـ ظاهر يقول أن المرأة كالوطن..

وسحبت الوسادة واتكأت عليها وهي ما فتئت تحدق في المرآة، وانسابت دمعتان من عينيها الجميلتين، أرادت أن تحكي لجارتها، تلك التجارب الحزينة، ووجع القلب، أدركت أن جمالها نقمة وليس نعمة، تمنت لو أن الزمن يعود بها إلى سنوات سبقت، منذ أن دخلت المتوسطة لتعاملت مع نفسها بقسوة، لردت على يد امتدت إليها بوردة، لسدت أذنيها عن أي كلمة غزل عابرة، لماذا سمحت لأولئك الفتية أن يعبثوا بمشاعرها، فتعثرت بالدراسة وبدلاً من طموحها في دراسة الطب، اختصرت الطريق إلى معهد المعلمات.

توقف المطر فقالت ساهرة:

ـ كم الساعة الآن؟!

أفاقت دلال من شرودها وقالت وهي تحدق في ساعتها:

ـ الثالثة فجراً.. أين ساعتك؟!

فركت ساهرة معصمها، سقطت الساعة وتهشم زجاجها، كان هاني في قمة السعادة، أفلح في سرقة قلب أجمل بنات المدينة احتضنها وشمها كما تحتضن أم طفلها المدلل، بقيت الساعة معه، أي ذكرى مؤلمة تلك؟!

لعله نسي الآن تلك القصة، أمعقول أن يظل رجل مثله مشغولاً بذكرى حب راحل؟!.. كانت تتصور وهي في طريقها إلى بغداد، أنها ستموت حتماً حزناً على فراقه، تعلقت به مثل طفلة تتعلق بأمها، لكن عامر كان مفاجأة لها، مفاجأة بكل معنى الكلمة، كلماته الحلوة، وعاطفته الجياشة، ولهفته عليها، أخرجتها من هوة مأساوية، وأدخلتها مناطق خضر يزدهر فيها الأمل وتشرق شمس الحنان.

- الحمد الله..

قالت ساهرة بصوت مسموع، فتساءلت دلال:

- على ماذا؟!

قالت ساهرة:

- الحمد لله لأنني وجدت الشخص الذي يحبني..

فقالت دلال بأسى:

- في الأقل ليس مثل حظي العاثر.. فلم أفتح قلبي لشاب إلا وهو مشغول بالسياسة!!

قالت ساهرة:

- ولكنني قلقة حول موضوع الزواج.. ترى أيفي بوعده؟!

أرسلت السماء مطراً غزيراً مبكراً، ظلتا تنصتان إلى صوت سقوطه على سقف الغرفة، حبكت ساهرة الروب على جسمها وقالت بخوف:

ـ ستغرق الصرائف..

وأضافت بذهن شارد:

ـ ماذا لو عرف الماضي؟!

وراحت تبحث في مؤشر الراديو.. حتى توقفت عند صوت تعرفه.. عبد الله الشاعر يتحدث عن تجربته من القاهرة.. كان يتحدث عن أثر الحب في شعره.. عن ساهرة، ملهمته في الإبداع إلى الأبد!!

صاحت ساهرة:

ـ دلال اسمعي إنه عبد الله.. إنه يتذكرني.. ذلك أول حب عرفته!!

هزَّت الأخرى يدها حائرة وأنصتت قليلاً وما لبثت أن نهضت وألقت نظرة من فرجة الباب وعادت إلى مكانها، تركت ساهرة الراديو بعد أن انتهى اللقاء وسألت:

ـ هل عرف حكاية العائلة التي سكنت في الغرفة المقابلة؟!

قالت دلال:

ـ تقصدين أم محمد؟! كانت تسكن مع ابنها في منطقة (الألف دار) ولكنها جاءت لتختم الجنسية..

ـ أي جنسية؟!

- هوية الأحوال المدنية.. ألم تختموا هوياتكم؟!

ضحكت ساهرة وقالت:

- لا أعرف شيئاً.. ربما فعل ذلك أخي قدوري..

ختمها بماذا؟!

أجابت دلال:

- الختم الخاص بترحيل أصحاب الصرائف.. إذا حصلتم على الختم تحظون بقطعة أرض سكنية في الثورة في الطرف الشرقي من بغداد.. وأضافت:

- أقاربي في منطقة الشاكرية حصلوا على الختم أيضاً.

فكرت ساهرة قليلاً كأنما تتخيل صورة الرحيل القادم، لم يحدثها عامر عن الموضوع، ماذا لو رحل في مكان آخر.. كم يقلقها هذا المستقبل المجهول. عادت تسأل:

- دلال.. أتعرفين بماذا أفكر؟!

رنت إليها الأخرى بعينين أضرَّ بهما السهر فقالت ساهرة:

- أفكر بأن الحكومة قد تغير رأيها وتعيد أصحاب الصرائف إلى المدن التي جاءوا منها وأكثرهم من الجنوب..

ضحكت دلال وقالت:

- لا تخافي.. لا أحد يفكر في ذلك لأن بغداد التي توسعت ستصاب بالشلل إن عاد سكان الصرائف..

عادت إليها هيئتها الجادة لتقول:

- هم ليسوا فلاحين.. إنهم عمال وشرطة وعسكريون وطلبة..

والفلاح فيهم هارب من الفقر ومن ذكريات ضيم الإقطاع..

سألت ساهرة وهي بالكاد تفهم ما تقوله صديقتها:

- أتدرسون ذلك في المعهد؟!

توقف المطر عن الهطول، ونهضت ساهرة التي نسيت سؤالها لتبصر فناء البيت، مدت رأسها وعادت مسرعة:

- ذهب الشيخ لطيف للوضوء..

سألت دلال باستغراب وبصوت خافت:

- كيف يرضى هذا الرجل التقي أن يقيم في غرفة ملاصقة لامرأة صلفة مثل شعاع؟!

قالت ساهرة مبتسمة:

- سأله عامر الرسام سؤالك هذا نفسه فقال له لا يهمكم من ضلَّ إذا اهتديتم.. ولكنه استغفر الله من سوء الظن وقال إياكم وقذف المحصنات.. حديثك عن ختم الهويات فسر لي معنى وجوده هنا..

- ٩ -

هل أخطأت؟!

كانت ساهرة تسأل نفسها وتبكي، هل أخطأت حين اندفعت نحوه بحب جارف؟! .. لا.. لم أخطئ.. وفكرت أنها منذ سنوات لم تحاور رجل مثله، حتى هاني لم يكن بعذوبة عامر، بل لم تكن قصائد عبد الله منصور، ترقى إلى ما في لهفة الرسام من رقة وحنان.

تأملت صدره المفتوح في قميص خطط بألوان زاهية كأنه لوحة شُكلت بدراية وذوق، تدفق حنان ملأ كيانها كله، وتفجر كالبركان، ودت لو احتضنته، شمت رائحة جسده، وسمعت من بعيد، أغنية عذبة لعبد الحليم حافظ، يتحدث فيها عن فرحته بالحب، فرحة تسع العالم كله، بداءً من أحبائه، أقاربه، جيرانه، أصدقائه، حيطان بيته، خفق قلبها وعامر يقودها إلى داخل مرسمه، باغتها في البدء حين قبّل كفها، تبسمت بارتياح كأنها تشكره، لكنها تخدرت تماماً حين التهم شفتيها وظل

مطبقاً عليهما حتى كادت تختنق.. اشتد شوقه وهيامه، فجعل يبحث عن صدرها، أعطته ما يريد، ساعدته لكي تستقر شفتيه على ضالتهما في اندفاعهما الشديد، شعرت بالقلق إذ سكت عبد الحليم حافظ وساد صمت مريب، غير أنها استعادت بنشوة طاغية، حركة هاني حين قلبّها مثل سمكة رأساً على عقب، وشمّ جسدها باشتياق، فسحبت عامر لتتيح له فرصة أن يستنشق عطرها الأنثوي كما فعل هاني، شعرت بخدر لذيذ، لكنه قطع متعتها حين رفع رأسه على نحو مباغت، وقال بقلق وضيق وغيرة:

ـ لماذا أفسدت شعاع عليّ متعتي؟!

سألته ساهرة بخوف وهي تسوي ملابسها:

ـ ماذا؟

جلس يلهث على كرسيه، وسألها:

ـ سبقني إليك شخص آخر..

ـ من؟!

ـ هاني.. هل فعل هاني معك ذلك؟!

فرت هاربة من المكان، كانت ترتجف مثل سعفة، ودارت قلقها باندفاع غير محسوب، فدخلت غرفة شعاع، بكت على صدر شعاع، شكت لها ما سمعت من عامر، أخذتها المرأة إلى صدرها، وهمست بجد:

ـ اطردي هذا المعقد السخيف من حياتك، وامسحي دموعك فزوجك قادم، ينتظرك على حصان أبيض.. عليك أن تبادري

وتزوريه في معمل الخياطة..

- من ؟!

- ناجي.. ذلك التاجر الثري الذي رآك عندي فجن جنونه!!

- ناجي..

نهضت مسرعة وهربت مرة أخرى، دفنت رأسها في الوسادة، في غرفتها الصامتة، وجعلت تبكي.

بعد شهر واحد، فكرت بجد أن تزور ناجي، أهي خيانة لحبيبها عامر، أم أن عامر الذي جرحها يوم سألها على نحو مباغت عن هاني أثار في داخلها تناقضاً لن تعرف إلى أي اتجاه سيدفع بها أو أي طريق ستسلك؟! في زاوية المرسم، امتص شفتيها بظمأ، وهبط إلى صدرها، لكنه رفع رأسه على نحو مفاجئ وسألها:

- هل فعل هاني ذلك معك؟!

بعد شهر واحد، فكرت أنها تخون عامر الآن، فلم تشعر بالوحشة أو الغربة، حينما دخلت إلى زقاق في بغداد الجديدة يفضي إلى معمل لخياطة الملابس الجاهزة، كان المصنع يضج بالفتيات العاملات، وعبر ممر يربط المعمل بالإدارة التي كانت أشبه بشقة منفصلة، كان ناجي يعيش مثل إمبراطور.. بدا سعيداً، محاطاً بالنساء وزجاجات الخمرة التي لاحظتها حين فتح الفرَّاش الثلاجة.

كان مهتماً بها وبلا مقدمات ضغط على زر فجاءت شابة طلب

إليها أن تأخذ المقاسات لملابس جديدة لها من دون أن يمنحها فرصة الاعتذار. شعرت بالغيرة من تلك الفتاة التي أخذت مقاساتها، كانت تتحدث مع ناجي وتدخن بطريقة لم ترتح لها، كان الرجل مبالغاً في أناقته وكان يتآلف مع أي إنسان في ظرف دقائق.

قال وهو ينفخ في سيجار:

ـ كنت أعلم أنك ستأتين..

استفسرت بنظرات مستغربة فقال:

ـ رأيتك مرة واحدة عند شعاع، وقرأت في عينيك الجرأة والطموح.. كأنك سميراميس ملكة بابل وآشور!!

وضحك كأنه يسعل وقال:

ـ من النادر أن نجد فتيات مثلك.. جمال وجرأة..

شعرت بأنه جريء، يذهب إلى ما يريد على نحو مباشر.. كان صياداً وليس خاطباً، وامتلأ قلبها بالشك من أنه يمكن أن يتزوج مثلها، وصدقت ظنها حينما قال:

ـ جمالك شيء فوق الخيال.. لو رُشحت لكنت ملكة جمال العالم بلا أدنى شك..

لم تنطق بكلمة، لكنها وجدت نفسها تقول بحياء:

ـ شكراً..

فقال بحماسة:

ـ لعنة الله على الفقر.. لولا وضعك الصعب لكنت شيئاً راقياً

في المجتمع.. آسف.. أنا لا أقصدك ولكن أقصد الظرف الصعب.. ليس الذنب ذنبك..

شعرت بانزعاج من كلامه، فقالت متضايقة، وقد انتابها الأسف والندم لقدومها:

- لا أدري.. ما الذي تريده مني بالضبط.

- أريدك..

- ماذا؟!

سكت لحظة وأضاف:

- اسمعي ساهرة.. أنا رجل صريح.. لو كنت أريد مساعدتك لقلت لك اعملي في المعمل بأجرة كافية.. لكن جمالك يمكن أن يرفعك إلى أعلى المراتب..

فقالت محبطة:

- كنت أظنك كما أخبرتني شعاع جاداً في موضوع الزواج.. وقد ألحت المرأة عليّ كثيراً كي أراك!!

فقاطعها بلباقة:

- أريد الزواج.. لا بأس.. أيمكن أن يتزوج إنسان بلا قصة حب..

نهضت، لم تشرب العصير الذي وُضع على الطاولة أمامها، استأذنت بالخروج، فقال لها بوجه باسم:

- ساهرة.. فكرة.. وثقي بي.. المهم أن تثقي بي..

ابتسمت بارتياح حين ظل جالساً خلف مكتبه، إذ ظنت لأول وهلة أنه لن يدعها تفلت، فقالت بامتنان:

ـ أشكرك..

همت بالخروج، لكنه أسرع وحال بجسده الضخم بينه وبين الباب، وقال بسرعة:

ـ اسمعي.. إن الرسام لن ينفعك.. إنه متزوج وهو يكذب عليك.. أنا رجل ماتت زوجتي وثري.. فكري في الأمر..

ـ دعني أخرج..

ـ ليس قبل أن أقبلك..

التهم شفتيها بظمأ، لكنها أفلتت نفسها منه، وركض الفرَّاش ومنحها علبة حلويات كبيرة، وقالت لها الشابة وهي تخرج:

ـ الأحد القادم يكون فستانك جاهزاً.. أعني فستان الزفاف..

كانت الشمس مشرقة كأنها تنتظرها في الخارج، يوم مشمس دافئ، كانت مليئة بالفرح، امتدحها الرجل كثيراً، صحيح أنها عرفته بغريزتها، رجل نهم، شره، إلا أن له قلب سمكة هو شره وحسب وليس شريراً، (ملعونة شعاع) قالت في سرَّها وأضافت: دفعتني ثمناً لإقناع منذر بالزواج بها والتخلص من الحارس، إن الطيور على أشكالها تقع، هي مثله وهو مثل أخيه منذر، وأنت يا ساهرة؟! كانت تحدث نفسها بصوت مسموع.. أنت تدورين كثور في ساقية، لديك شك كبير في أن جمالك سيقودك إلى شيء ذي قيمة، الجمال كما قال ناجي يحتاج إلى حماية وإلى ظرف حسن، جمال ضائع والكل يريد أن يعبث بك،

ماذا ستكونين عندئذ؟! أتذكرين ما قاله الشيخ لطيف الذي سكن المنزل قبل شهرين، قال لك:

- يا ابنتي احرسي جمالك..

- كيف؟!

- احرسي جمالك.. فإن الحسناء إن لم تحرس جمالها صارت خضراء الدمن.. وقد حذرنا الرسول الكريم من تلك المرأة كما يحذر إنسان إنساناً من النار..

فقال إياكم وخضراء الدمن.. خضراء الدمن يا ابنتي تقتل عشاقها!!

كان الناس يسلكون ممرات تركتها الأمطار بين بغداد الجديدة ومنطقة تل محمد التي تسمى بهذا الاسم نسبة إلى التل الذي يقع على مقربة منها ويضم أثاراً تعود إلى فترة مبكرة من تأريخ العراق.

حين اقتربت من مجرى المياه الآسنة، كان الأطفال يتقافزون حول المرأة التي جُنت والتي أُشيع أنها أحبت وجنت لفرط حبها..، أسرعت متوجسة حتى دخلت الزقاق، شعرت بإشفاق على الرسام مشوباً بشعور غامض بالانتصار حين رأته يقف قلقاً ينتظر قدومها، تمنت أن يعرف أين كانت، ومن كان يحدثها ويتغزل بجمالها، يحلو لها أن تحرق فؤاده، أشاحت بوجهها وهي تدخل فركض خلفها وقال:

- ساهرة.. قدوري في المنزل..

التفتت إليه، وأسرعت إلى الداخل، متى وصل؟!، شعرت بخوف حقيقي، أتكون شعاع قد أخبرته بمكانها، ماذا قدمت زوجة أخيها عذراً لكي يسكت، يا رب.. كانت خائفة حقاً وبدت علبة الحلويات ثقيلة على يدها، لكنها تهيأت لتجعل منها عذراً مقبولاً لخروجها.

همست زوجة أخيها:

- أين كنت؟!

كان قدوري في الحمام، يغتسل من عناء واجب طويل، هذه المرة، تأخر عن موعده، وراقبت بخوف ملابسه العسكرية على الحائط، لاحظت في الأرض أكياساً تضم أنواعاً مختلفة من الفواكه، قالت زينب:

- إنها من الشمال..

وهمست في أذن ساهرة:

- قلت له في السوق..

هزت رأسها، ماذا لو عرف يوماً، أنها خدعته، جاء بها من البصرة، ليخرجها من حب لم يرق له، فإذا بها تدخل في حب آخر، وها هي اليوم مع السيد ناجي الذي بعث لها إشارة واضحة يخطب فيها ودها.

وجدت أخاها مهموماً، لم يكلمها، رد على تحيتها بفتور، كان مطرقاً يفكر، جعل يقبّل ابنه وأعاده إلى أمه، قال كأنه يحدث نفسه:

ـ سأذهب غداً إلى البصرة.. أريد أن أرى أمي..

ـ بودي أن أراها..

قال شبه نائم:

ـ تعالي معي..

ـ صحيح؟!

اضطرب صدرها، كادت تسمع دقات قلبها تضرب الأضلاع، مشت في شوارع البصرة، كم تود لو تمر على دكان السمك، أين هاني؟! تغيرت ملامحه كثيراً، اشتعل شعره شيباً، تخيلته في صورة أخرى، فَرِحٌ، سعيد، فقد اقترن بفتاة أخرى ولم يعد يعرف ساهرة، أنَّبت نفسها لأنها شغلت به قبل أن تسأل عن أمها وأخيها، قررت أن تتجنب رؤيته، هل يتركني هناك، لا أظن.. سأعود معه.. كم تمنت أن تسأله، وكأنما كانت زينب تقرأ أفكارها قالت:

ـ قدوري لماذا تأخذ ساهرة؟

ـ أريدها معي..

ـ حسناً.. حسناً..

وكانت تلك آخر مرة ترى فيها شقيقها، هل تسبب هو في إنهاء حياته حين أثار ضغائن قديمة نائمة، أيكون هو من تسبب في تلك المأساة التي عطلت حياتها عاماً كاملاً من الحزن والوحدة.. قُتل قدوري، لكن أحداً لم يعرف صاحب الرصاصة

التي جاءت من دون شك، عبر ثلاثين عاماً من الأحقاد لتستقر في صدره، وفي موضع القلب..

- ١٠ -

كان الرسام مشغولاً بساهرة، كان قلبه فارغاً إلا من هذا الحب الذي ملك عليه كيانه كله، وحّوله إلى كتلة مشاعر لا يعرف كيف يردها أو يكبح جماحها أو يوقفها، وها هو عام يمر منذ أن رحل قدوري، وساهرة التي ترتدي السواد، تشده بأسباب لا تنتهي عند حد حتى ظن أنه مسحور يُحرك بقوى خفية لا قدرة له على ردها.

كان ضغط الذكريات مؤذياً، أماكن بعينها تثير في صدره الشجن، كلمات شائقة سمعها منها فوقعت في نفسه موقعاً مؤثراً، تركت في ثنايا الذهن أثاراً لن تمحى، كان حين يشتد به الشوق، يأوي إلى مكان كانت تجلس فيه قبالته، هناك يستحضر روحها وهيئتها، كيانها الجميل الفاتن كله، يسمع ضحكتها تملأ الأرجاء، كانت تروي طرفاً يضحك لها من الأعماق، وكثيراً ما قدر أن تلك الضحكات تخفي حزناً عميقاً.. في آخر ورقة كتبتها له قالت «في عيني دمعة.. دمعة تريد أن

تخرج.. قطرة صغيرة ساخنة تختزن كل مآسي وأوجاع قلب مكلوم.. آه من غدر الأيام وظلم البشر.. أشعر أحياناً أنني قناع يضحك.. في داخلي شيء يتمزق.. ما أقسى ذلك.. أعترف.. أن الحب كان مشكلة بالنسبة لي.. أريد أن أعيش مع رجل أحبه، كنت أحبه، مازلت أحبه، سأظل أحبه.. لكن من وكيف؟ أعترف أيضاً أنني فشلت في الحب.. وتيقنت أن الحب مدرسة لا يتخرج فيها أحد.. لكننا ندخلها طوعاً أو كرها.. ندخلها في الحقيقة أو في الخيال.. ندخلها حتى إن كان في ذلك نهايتنا..»كان يشك في أن المفردات لها، لولا أنها كتبت الورقة قبالته، تساءل مستغرباً فقالت ضاحكة بمرح وزهو:

ـ كنت أشطر طالبة في درس الإنشاء..

أضافت بجذل وهي تتذكر كتاباً حفظته عن ظهر قلب كان هدية من عبد الله الشاعر:

ـ حفظت الشعر وقرأت كتاباً عن رسائل العشاق مائة مرة..

كانت تشبك يديها إلى الخلف وتتطلع إلى لوحاته في المرسم بإعجاب وتأمل عميقين.. كانت معجبة به.. كان يبدو لها عالماً غامضاً جميلاً ساحراً وكان مبعث سعادتها أنها ظفرت به دون سواه.

يشعر الآن، بالأسى.. الأسى العميق، لأنه فقد زمام السيطرة على حبيبته، ساهرة الآن ـ كما قدر من قبل ـ تهرب من تأثيره وذكرياته إلى مواقف صعبة، معقدة، سوف تندم عليها بكل

تأكيد، ساهرة تريد أن تخرج نفسها من حبه، وقد عقدت العزم على حجم الخسائر التي ستقدمها ثمناً لذلك الخروج.. استغرب ذكاءها في هذا الأمر، فلقد سألها مرة، كيف يمكن نسيان حبي ذات يوم، كان يمزح معها وفي نفسه يريد أن يقرأ أفكارها، كانت تجيبه:

- ألا تعرف كيف تمسح شريطاً غنائياً لتسجيل أغنية جديدة.. تجربة تمسح أخرى.. ذكريات جديدة تمسح ذكريات قديمة.. وجه جديد يطغى على وجه قديم..

قال لها مستغرباً:

- أنت شيطانة يا ساهرة.. كيف عرفت ذلك؟

- علمتني الحياة..

- ولكن أفكارك تعني أنك غير مخلصة.. لا يؤمَّن جانبك..

- بل يؤمن.. أنا الآن مشغولة بك.. عليك أن تطمئن.. فالمشغول لا يُشغل..

- لم أفهم..

- أتستطيع التحدث بالهاتف وشخص آخر يتحدث فيه؟

قال بتسليم: لا.. ولكن كيف عرفت ذلك؟!

قالت بزهو:

- يا عزيزي كنت طالبة متفوقة في درس الإنشاء والتعبير الأدبي وقرأت شعراً.. فقاطعها:

- وعرفت الحب.. أليس كذلك؟!

نكست رأسها ولم تجب، وظل ممزقاً في داخله، فلقد قالت له شعاع بعض أسرار حبيبته، لكنها تراوغ.. أهو خاطئ؟! لماذا يحبها أصلاً؟! ألأنه كان حالماً، يهرب من واقع مدمّر يكويه بناره كل يوم؟ ربما فما أن ينتهي عمله ويعود إلى المنزل في أطراف (تل محمد)، حتى يجد التناقض المدمّر لذاته في صورة امرأة حزينة، يكاد يكون عالمها الوحيد وحصتها من هذه الدنيا الواسعة، لكنه بإحساسه المرهف أو بتعقيده الذاتي الخاص، يفصل بين احترامه لها بوصفها امرأة عاقلة قبلت به زوجاً وقاسمته ظروف الحياة منذ اقترن بها، وبين الجفاف الذي وسمتها به الحياة فسلبت منها نعمة الإنجاب التي توهب للمرأة الولود، كان التزامه تجاهها التزاماً أخلاقياً يقابل الفضل بالفضل والإحسان بالإحسان لكنه حين يتأمل في ذاته، يرتد خائفاً من تلك الظلمة التي لا ينيرها حب يحرك أعماقه ولا عاطفة لطفل يضع فيه ما فقده، كان بحاجة إلى ما يشغله فوجده في حب ساهرة.

لكن ساهرة في الآونة الأخيرة، تهرب منه، كأنها افتعلت الخصام، وقد تابعها مراراً وعرف أنها تزور معمل الخياطة في وسط بغداد الجديد فأثار ذلك قلقه وأسفه وغيرته.

نعم، لا ينكر ذلك، إنها تثير غيرته، ولعله لم يكن حذراً حين لم يحتفظ بالأسرار التي سمعها من شعاع، لعل المرأة مغرضة، كيف خانته فراسته وكبا ذكاءه؟! إن رد فعل ساهرة، يعذبه، تحول من إبداع إلى عذاب، فهي ستجعل الأمر

صعباً معقداً، غير أنه لم يكن يطلب سوى تجربة تحرك ما رسب في أعماقه من أشواق روحية مرهفة، كان يريد تجربة ليس لها علاقة أو مساس بأسس حياته أو بيته، لا يريد لتلك المملكة التي ترك فيها امرأة تطمئن إليها روحه أي زوال، لكنه يريد إلى جانب ذلك، أن ينعم بشيء من طراوة الروح، أما الزواج بثانية، فلم يخطر له على بال، وإذا ما خطر بباله في لحظة وهن بسبب الفراغ الذي يملأ البيت بصمت ثقيل، فإنه لا يريده أن يكون إلا بمباركة زوجته، فإن باركت الأمر فمن تلك التي يمكن أن تكون شريكة لشريكة حياته؟!

أهي ساهرة؟ بات يشك أن ساهرة مؤهلة لهذا الدور، وإن كانت مؤهلة جمالاً وفتنة وأنوثة، لكنها وإن ملكت كل ما في المرأة من صفات، إلا أن ما ينقصها هو تلك السمة العميقة من الفكر والإحساس بالمسؤولية والالتزام الذي لم يعد يراه، بل صار يعذبه منها ما يعد في نظره خروجاً على مألوف ما ينبغي للمرأة العاقلة العفيفة أن تلتزم به.

- ١١ -

كان يسأل نفسه، أيجوز أن تزور فتاة بمفردها ذلك الثري صاحب مصنع الخياطة، وما عساه يفعل إن استفرد بها في مكان يخصه، ومن يضمن قدرتها على مقاومة الإغواء والإغراء، وما عساها فاعلة بذلك الماضي الذي لا يعرف عنه إلا ما تردد عن علاقة حب سابقة تركتها خلفها في البصرة.

من حبها، يتذكر أياماً جميلة، وتعود به الذاكرة إلى ما طرأ عليه من تحول غريب، فقد بدا شفافاً رقيقاً، يعتني بنفسه، حتى خيِّل إليه أنه صار وسيماً أكثر من ذي قبل، وصار أنيقاً، وغدا يحفظ من الشعر أبياتاً في يومه ما لم يكن بمقدوره أن يحفظها بأعوام.

بالأمس، انتقد نفسه، واستغرب لتصرفه تجاهها، فلقد أبصرها خارجة في كاملة أناقتها، لحق بها، لكنها اختفت منه وسط زحام بغداد الجديدة، فعلم أنها باتت تخدعه، إنها تعاقبه، أو تنوي تحطيم إرادته بالغيرة، ماكرة، تعرف أنه يحبها فتلعب

بأعصابه، لكنها لا تدرك خطورة ما تفعل، إن ذلك سيفقدها ثقته بها، ليتها تدرك ذلك، ليتها تدرك خطورة وجسامة ما تفعل.

في المساء، كمن لها خلف السدة حين لمها من بعيد تخرج مرة أخرى، وحين هبطت من الجانب الآخر، وقف قبالتها فاضطرت لأن تتوقف كي لا تثير انتباه المارة، قالت وهي تطيل النظر في وجهه بين الاشتياق وبين التشفي:

- ماذا تريد؟

- أريد أن أكلمك..

- لدي شغل..

صاح غاضباً:

- اسمعي.. إن لم تأتي معي فسأخبر زينب بكل شيء.. صحيح أن قدوري قد رحل لكن أهلك هناك يا غافلة!!

انتبهت تتفحص وجهه بنظراتها كمن تقدر خطورة ما يقول، فقالت مستسلمة:

- تكلم ماذا تريد؟

- ليس هنا..

تبعته صاغرة، لم يتكلم، شعر بانتصار وزهو داخلي، لقد نفع التهديد وها هي تذعن للأمر، يعلم أنه لن يقدم على مثل تلك الخطوة، لا يمكن إطلاقاً أن يقدم على إخبار زينب بشيء، قد يتطور الأمر إلى حدود لا تُحمد عقباها، قد يتطلب الأمر شهوداً وقد يعد تشهيراً بسمعة فتاة وعائلتها، ولكنها أذعنت تقديراً

لجسامة الأمر حتى إن لم يحدث، فليس لديها القدرة على التأكد من أن عامر يتردد في الحديث إلى زينب، كان وجهها الجميل الأثير لديه، شاحباً كليمونة عصرت وُذبلت، كانت في أسوأ حالة نفسية. تنازعته رغبتان أحدهما أن يبكي على صدرها حباً وهياماً وتعباً، والأخرى أن ينهال عليها ضرباً عقاباً لها على ما فعلت به، على انفلاتها الذي تجاوز حده المعقول على جموحها الذي حطم في نفسه ذلك الفرح الذي كان يستشعره وهي تهيم به حباً وتركن إليه في مرسمه مثل حمامة وادعة، هادئة في خفر وحياء ورقة.

صعدت إلى جانبه في الحوض الخلفي لسيارة الأجرة، ما فتئت صامتة كأنها تساق إلى نهاية محتومة لا حيلة لها في دفعها.. وقد أضفى مذياع السيارة الذي كان يبث أغنية حزينة عن فراق الحبيب مسحة من الحزن الثقيل والألم الممض، وبدأ كل منهما يغوص في بحيرة الصمت، يمد كفه للآخر من دون جدوى، وبلا أمل..

هبطا قبالة (الكازينو) التي اعتادا الجلوس فيها في أيام خلت.. مكان هادئ كأنه صنع ملاذاً آمناً للعشاق، وكان دجلة يجري هادئاً في حياد وصمت، يلخص حقيقة الحياة، في هدوئها الظاهر وفي باطنها الصاخب الذي تجوبه مختلف الحيوات المتناقضة في طباعها ومسارها..

سارت أمامه متثاقلة الخطى، وتوقفت لحظة تنظر أعشاباً

حرُقت إلى جانب الممر وأحرقت معها الأرض فبدت بقعة سوداء داكنة، وقف ينتظر ما تريد، فالتفتت إليه وقالت بانكسار:

- لقد حرقتني كهذه الأرض، يوم ذكرت اسم هاني ولم تقل أين عرفته؟

لم يعلق بشيء، شعر بالأسى، وحين بلغا الكراسي، رمت نفسها متعبة، وضعت كفيها حول رأسها، وما عتم يتفحص وجهها الجميل برغم شحوبه، وشعرها الأسود الذي يتدلى جانباً كأن رساماً بارعاً حط تفاصيله بريشة مرهفة، قطع السكون بأن دفع يده ليمسك بكفها وهمس لها:

- أيمكن أن ننسى ما حدث ونبدأ من جديد؟ شعاع هي سبب ذلك الخراب!!

قالت بأسى عميق:

- ما الفائدة.. تأخرت كثيراً.. لقد جرحتني!!

لم يفهم مغزى كلامها على وجه التحديد، فقال بوضوح وصراحة:

- ساهرة.. أنا أحبك.. لقد حسمت أمري إما أن أقترن بك أو أجن..

قطبت حاجبيها منزعجة وفركت جبينها بأصابعها كمن تزيح صداعاً مزعجاً وقالت:

- مستحيل.. زواجنا مستحيل لولا شعاع لما عرفت حقيقة زواجك!!

والتفتت إليه فجأة مستفزة غاضبة وقالت:

ـ لماذا قدتني إلى هنا بالتهديد.. ماذا تريد؟!

اختفى الحب، وحضر الخصام كأسوأ ما يكون، غاب الود وحل محله كره شديد لعله عتاب متجذر بلغ منزلة الألم الممض، وانتظر حتى تهدأ، لكنها عاودت باللهجة ذاتها:

ـ أين رسائل وصوري.. أريد رسائلي وصوري..

كانت قد أعطته صورتها في لحظة حب، تستدير بعينيها إلى الكاميرا فيطلان في نظرة متأملة حالمة، ورسائل كتبتها في لحظات جنون جاءت موقعة بأحمر الشفاه.. كانت في رسائلها تعبر عن قناعتها به زوجاً ورفيقاً.. كانت تكتب في الأسفل رفيقة دربك وزنبقة حياتك.. سين.. وكان يظل لساعات يتأمل السطور ويشم رائحة العطر في المغلفات الجميلة ويضع شفتيه فوق شفتيها المرسومتين بعناية، في فم عصفوري جميل.

سألها وقلبه يتقطع أسى:

ـ ساهرة.. أليس ثمة أمل في تجاوز ما مضى؟!

قالت بيأس كامل وفتور من أيقن أن الإنكار لن ينفعه في الإفلات من العقاب:

ـ لن ينفع.. لا جدوى..

ـ لماذا؟!

أطرقت يائسة، وقالت:

ـ لقد تصرفت برعونة..

وأضافت:

- في المدة الأخيرة، تصرفت برعونة.. فقدت توازني.. أعتقد أن كل ذلك جرى بسببك أو بسبب غياب أخي!!

طفرت دمعة من عينها، لكنها واصلت:

- كنت بين يديك.. كنت لك وحدك... لكنك جرحتني.. أما الآن..

سكت منتظراً، فقالت:

- عرفت رجالاً بعدك..

سألها من فوره:

- ناجي؟!

فقالت بلا تردد:

- زرته في غرفته الخاصة.. وعدني بالحديث عن الزواج إلا أنه باغتني.. كان نذلاً.. قبلني عنوة.. ثم خدعني، دخلت لقياس فستان جديد، فباغتني وأنا عارية!!

- ١٢ -

إنه الجنون.. لزمه خوف من أن يفقد السيطرة على نفسه، فيجن، أحس أنه دخل في تجربة لم يخضها من قبل، تعرض إلى جرح ليس من السهل مداواته، الجنون الذي كان يسمع به، صار منه قاب قوسين أو أدنى.. إنها خطوات ويفلت به الزمام فيمشي في الشوارع لا يدري ماذا يفعل وماذا يقول.. مستحيل أن يصدق ما سمع.. حبيبته التي هام بها، تتقاذفها الأيادي في غرف موصدة، ما جدوى الاحتفاظ بعذرية زائفة، تلك العيون الغريبة تفحصت ما لا يمكن أن يكشف لغريب، أتكون الفتاة كاذبة قصدت في ذلك أن تجرحه كما جرحها؟! ولم لا؟!.. عجب من نفسه، كيف تماسك قبالتها، وعاد بها كأنه لم يسمع منها شيئاً، أكانت حيلة لا شعورية منه لكي لا ينفجر غاضباً فيلقي بها في وسط دجلة؟!

يا للعار.. ومع من؟! مع رجل طالما كره أن يبادله التحية العابرة؟! يا للمأساة.؟. كم هو حزين بائس، وليت الأمر يغادر

ذهنه كله، إذن لشعر بارتياح وركن إلى هدوء يحتاج إليه كثيراً.

إنه يختنق، وليس من مخرج سوى أن يهرع إلى أحد يستمع إليه أو ينصت لقصته.

استعرض كل الذين يعرفهم، فلم يجد في نفسه الهوى لأن يقصد أياً منهم.. كان يذرع السدة الترابية ذهاباً وإياباً.. كان يمشي حتى يكاد يسقط تعباً وعندئذ يأوي إلى فراشه فلا يزور عينيه طيف من نعاس.

شعر برغبة في التدخين، فقطع المسافة الممتدة حتى معمل الحديد، وطلب من الحارس سيجارة، استغرب الرجل مجيئه، لكنه رحب به، وقدم له سيجارة وشاياً، ووجد نفسه يحدث الرجل بالقصة مع تغيير طفيف في شخص الفتاة ومكانها ليبعد عنها وعنه ما يثير إشكالاً ما.

نكس الرجل رأسه، وراح يمسد بكفه على بندقيته، انتاب الرسام شك في أن الحارس عرف أن المقصودة هي ساهرة إذ سرعان ما نهض إلى ديلاب صغير في غرفته وجلب منه شريط حبوب صغيرة، وقال لعامر:

- واحدة بعد العشاء تجعلك غائباً عن الدنيا وما فيها..

- منوم؟!

- مهدئ للأعصاب ومعدل للمزاج..

- ولكن..

- لا تخف.. خذ واحدة الآن وأخرى في المساء فلولاه لما بقي في

رأسي عقل..

ناوله قدح ماء فابتلع القرص، ولم يستطع أن يكتم انفعاله، كان يغلي كقدر تحت نار حامية، وهو يتذكر أن زوجة الحارس هي السبب في تقديمها رخيصة إلى صاحب المصنع، كان يردد في داخله.. «ليست صالحة.. كيف تبقي عليها..» وشعر بالمفارقة بين واجبه حارساً يملك سلاحاً قاتلاً، وبين رضوخه للأمر الواقع، شعر بدوار في رأسه، أرخى رأسه إلى الخلف وقال للرجل مثل شخص حالم وهو يواصل حديثاً انقطع:

- هل اعتدت يا عم ترك منزلك ليلاً؟!

قال الحارس:

- نعم..

فقال عامر بصيغة ذات مغزى:

- تلك قدرة خاصة تحسب لك.. فأنا لا أثق بامرأة تترك وحدها..

قال الحارس كأنه يحدث نفسه:

- أتخشى الخيانة.. فللخيانة عقوبة..

- أتعرف يا عم تلك العقوبة؟!

ضحك الرجل ضحكة طويلة مجلجلة، ونهض متطلعاً من نافذة صغيرة إلى السدة الترابية قبالته، ومن مكانه قال بلهجة جادة:

- وما فائدة أن أعرف العقوبة دون تنفيذ؟!

- والحل؟!

ـ أن يغسل الإنسان شرفه بيده..

وضحك وقال:

ـ وهنا قد ينتظره الإعدام إن لم يجد شهوداً..

كان الرسام يتأمله، يتفحص عنقه الصغير الطويل مثل عنق دجاجة، وتخيله في وضع من يتدلى مثل حبل فقال:

ـ هناك دول تستبدل الشنق بوسائل أخرى مثل الكرسي الكهربائي أو زرق الإبر السامة أو...

ـ لا فرق.. لا أعرف من أوجد هذه العقوبة؟!

قال عامر يستحضر معلومات اطلع عليها فيما مضى:

ـ إنها قديمة.. وباستثناء دولة أو اثنتين فكل الدول الأخرى تأخذ بها.. إنه محل جدل رجال القانون.. بين مؤيد ومعارض.. المعارضون يرون أنها غير شرعية لأنها تقطع كل سبيل أمام الإصلاح، وإنها غير عادلة فكيف مثلاً يمكن تلافي الخطأ فيما لو ظهر أن الإنسان بريء بعد إعدامه، لذا فهي قاسية تشمئز منها النفوس..

فقال الحارس مستفهماً وهو يصغي بانتباه شديد:

ـ وهل هناك من يؤيدها؟!

ـ كثيرون.. الفقهاء يرون أن إزهاق روح المحكوم عليه، يحقق الردع العام وينسجم وقوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾ فهي وسيلة ممكنة لمواجهة الجرائم الخطيرة، وإجراءاتها يمكن أن تضبط فلا يحدث الخطأ، أضف إلى ذلك

أنها اقتصادية فبدلاً من الأعباء التي تقدم لسجين لا يُرجى إصلاحه، يقطع رأسه وينتهي الأمر..

وضحك وقال:

- أتنوي قتل أحد؟!

مط الحارس شفتيه وقال:

- أريد أن أفعل ذلك مع بقاء رأسي فوق جسدي..

فقال الرسام وهو يحثه على الأمر وفي رأسه تدور أفكار خطيرة:

- يمكن ذلك..

- كيف؟!

- العقوبة الأشد هي للجرائم العمدية.. يمكن الخلاص بتحويل العقوبة إلى جريمة غير عمدية..

- لم أفهم..

- في القانون إذا انصرفت إرادة الجاني إلى ارتكاب الفعل المكون للجريمة وإلى أحداث النتيجة الجرمية الناشئة عنه، توافر القصد الجنائي وأصبحت الجريمة عمدية كما لو أطلقت رصاصة من بندقيتك هذه على شخص فقتلته.. لكن الأمر سيكون مخففاً في الحكم إذا انصرفت إرادة الجاني إلى الفعل فقط من دون أحداث النتيجة الجرمية أي غير عمدية مثل إطلاق رصاصة بقصد صيد طير فأصابت إنساناً فقتلته أو قمت بتنظيف البندقية في غرفتك وقتلت أحداً.. يكون الأمر هنا خطأ لا غير..

ظل الحارس مقطب الحاجبين، يتطلع إلى عيني الرسام متخيلاً في ذهنه صورة كاملة للحدث.. وما لبث أن جلس كأنه مغمى عليه، لولا حركة أصابعه التي أخرجت سيجارة، أشعلها وراح يمتص دخانها بعمق، وقال:

- لماذا خلق الله الشر في الإنسان؟ ما أحوجنا إلى الخير.. لماذا تفسق المرأة، لماذا يسرق السارق؟ لماذا لا يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه فيعتدي على حصة سواه..؟!

قال الرسام وقد أشفق لحال صاحبه:

- أولاد آدم من آدم.. وقد قص الله علينا نبأ آدم مع إبليس.. والقصة تعني أن للإنسان جانب خير يقوده إلى الخير وجانب شر يغرى به إلى الشر.. وقد ابتلينا نحن أبناء آدم بإبليس اللعين.. يضمر لنا العداوة ويعد نفسه ليصنع بنا ما صنع مع أبينا، يكشف لنا عن عورات وسوءات كما كشف لأبينا عن عورات وسوءات..

وأكمل كأنه يحدث نفسه من دون تحفظ:

- وإلا ما معنى أن تخبرني ساهرة بما يجرح روحي إلى الأبد..

وأضاف الحارس ينصت إليه:

- لو كانت زوجتي شرعاً وقتلتها متلبسة لأصبح الظرف مخففاً للعقوبة.. بدل السجن المؤبد سأسجن أقل من ثلاث سنوات بكثير..

وشدد على مخارج الحروف وهو يقول:

- كما تغسل سروالك الداخلي من القذارة فهناك ما يسمى

غسل العار.. وإلا ظل جبينك قذراً..

كان الحارس ينصت إليه بانتباه وقال وهو ينفث دخان سيجارته:

- ليس سوى القصاص!!

كان الرجل يتأمل غدارته، حين أغفى الرسام متأثراً بالمهدئ الذي ابتلعه، أغفى سريعاً مثل طفل بريء، كان الحارس يستعيد كلمات صاحبه، القتل العمد، والقتل غير العمد، خيل إليه أن بمقدوره أن يقتل شعاع وأن يخلص من هذا الهم الذي يرزح في صدره، كنت أنظف البندقية وانطلقت رصاصة غير مقصودة.. لكن المحامي الحقير الذي لازمه مثل شيطان رجيم، ذلك الإنسان المريض، سيقلب الحق باطلاً والباطل حقاً.. وسيقف جميع الذين أيدوا عقوبة الإعدام فرحين، في ساعة إعدامه، وعلى شفاههم ابتسامة تشف ولؤم.

تساءل وهو يتأمل وجه الرسام عما يمكن أن يفعله تجاه تلك الفتاة التي جرحت كبرياءه، لماذا جنحت وكيف واتتها الجرأة للحديث عن جريمة نكراء.. الاعتراف سيد الأدلة.. اختلجت عضلات وجهه فأيقن الحارس بأن صاحبه يطلق النار على الفتاة في الحلم فيرديها قتيلة، لكنه أيقن بأن الرسام سيلجأ إلى القتل غير المقصود لكي يخفف عنه الحكم.. ولكن كيف وهي ليست زوجته أو قريبة له.. إنها غريبة عنه ولا سلطان له عليها.. إنها حبيبته وحسب.

شعر بصداع قوي في رأسه، فرك جبهته، وسعل بشدة، ففتح الرسام عينيه، وابتسم من فوره معتذراً، ونهض ليغادر، وسرعان ما عاد إلى الحارس وضمه إلى صدره وقال بتأثر:

- أوصيك بالصبر..

خرج الرسام فتابعه الحارس قلقاً، كان يترنح كالسكران، ولكن نفسه كانت أهدأ بفعل الدواء، امتلأ صدر الحارس حقداً على الفتاة وعلى امرأته، والتفت إلى البندقية في نظرة ثابتة صامتة مقهورة كنظرة إنسان يتحدى، انحنى ليلتقطها وعلق حمالتها على كتفه وخرج مسرعاً.

كان الرسام في هذه الأثناء قد وصل بيته متعباً طرق الباب فلا من مجيب، لم يعتد أن يعود فلا يجد أحداً، خمّن أنها ربما في الحمام، انتظر قليلاً، فخرجت امرأة من البيت المجاور، وسلمته المفاتيح، وقبل أن يسألها قال:

- زوجتك خرجت إلى الأبد..

وهزت رأسها ضجرة متذمرة واختفت في منزلها، لم يفهم عبارتها، فتح الباب بسرعة ودخل، اندفع في ممرات المنزل الضيق كأنه يبحث عن شيء مفقود، وهاله منظر الرسائل التي بُعثرت في الغرفة، وهناك ورقة وُضعت فوقها سكينة على منضدة، التقطها بسرعة والتهم السطور التهاماً:

« كان عليك أن تخفي هذه الأوراق في مكان آخر، فهي دليل صارخ على خيانتك.. أخيراً وجدت معبودتك التي لن تنساها

إلى الأبد كما ذكرت.. سأخرج إذن من حياتك إلى الأبد.. أما إذا كنت نادماً.. فافعل ما يمليه عليك ضميرك.. هذه السكين أمامك.. اغرسها في بطنك إن كنت صادقاً.. ستعرف معنى أن يجرح إنسان إنساناً آخر.. هذا جرح قاتل.. والجرح الذي أحدثته في روحي قاتل أيضاً.. لقد قتلتني يا عامر.. قتلتني يا عامر..» شعر بدوار وانهار إلى الأرض كأن أحداً ضربه على أم رأسه، ضاقت به الأرض بما رحبت، وتناول بيد واهنة حبة المنوم وابتلعها دون ماء وظلَّ ممداً لا يدري ما يفعل.

حين استيقظ في المساء، أدرك من الصداع الذي ضرب رأسه ومن فمه الجاف أنه مريض، وأن به حاجة إلى طبيب وعلاج.

كان أخطر ما أحسَّ به وخشي منه، هو هذا الكلام الذي لا يغادر مخيلته عن خيانة حبيبته، عن اعترافها الصعب، كان الجرح عميقاً غائراً، ينزف دماً كان مجروحاً بالفعل، وراح يلوم نفسه، كأنه هو الذي تسبب في كل ذلك، وحين يهدأ، يقنع نفسه بأن السبب الحقيقي هي، وليس هو وسرعان ما يلقي باللائمة عليها فهي التي كانت مستهترة بقيم الحب.. هي التي لم تقدر العواقب، ولم تدرك أن الحب قضية وموقف.. وأن ما فعلته أشبه بحاجز نفسي لن تفلح كل الأسباب في اجتيازه ولن ينفع كر الأيام في محوه وغيابه، إنه حاجز يرتفع من الأرض ويصطدم بالسماء مذكراً ومؤشراً ضياع فرصة إلى الأبد في اللقاء ذات يوم أو التفكير.. مجرد التفكير في إصلاح ذات البين أو البدء من

نقطة جديدة، أو التفكير في حل مناسب لأزمة عابرة..

سقط مرة أخرى مغشياً عليه.. يكاد يلفظ أنفاسه، فقد ضاع منه حبه وضاعت منه عشرة عمر مع زوجته، وجد نفسه وحيداً بائساً مثل فارس امتلك سيفاً وقد انفض النزاع وخلت الساحة من نزال عنيف.

- ١٣ -

إياك أن تمد بصرك خلف ستارة أسدلت، أو تلج كواليس مسرح مغلق بعد نهاية عرض جميل لتعرف ما يدور هناك، ستجد خشبة فارغة متربة وبشراً لا يمتون بصلة لأولئك الذين رأيتهم.. ستجد الملك فتى ساذجاً حليق اللحية، يدخن سجائر عادية، أما الشقراء الثرية الفاتنة التي تقاتل من أجلها الرجال فممثلة بائسة تسأل بوجل وهي ترمق الظلمة من يوصلها إلى أهلها في أطراف المدينة وقد بدا شعرها فاحماً قصيراً مقززاً.. إياك أن ابتعت سيارة قديمة أن تلح في السؤال عمن جلس خلف مقودها طول سني عملها في الشوارع.. تعاقد مع آخر مالك وافترض أنها كانت لديه منذ البدء.. فقد يقودك السؤال إلى أنها كانت تحت لص محترف أو قاتل أو رجل سيء السمعة أو سياسي مناهض لفكرك وستكون في وضع قلق وأنت تقود السيارة وفكرك مشغول بكل هذا..

كان الأجدر بك أن تغادر المسرح فور إضاءة النور واقتراب

طريق الستارة وأن تلقي نظرة على المحرك والقشر الخارجي دون إمعان في المقعد والمقود.. لقد قادتك المعرفة إلى حقائق بائسة جرحت بها كيانك.

صحيح أن المنطق كما جاء به العلماء منذ العصور الوسطى وقبلهم الفلاسفة الإغريق يرى أن كسب المجهول من المعلوم بمقتضى العقل السليم هو أساس كل حكمة.. لكنك هنا في موضع آخر، فأنت لا تتأمل جوهر الحياة أو الكون أو الخالق بل أنت تحشر أنفك فيما لا يعنيك.. وأنت تعلم أن من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه.

كان عامر الرسام يحدث نفسه بكل ذلك، حين حملته خطواته إلى الزقاق الذي هجره منذ أيام، وقد بدا من لحيته وذبول عينيه أشبه بمريض غادر مشفاه تواً.

يعلم أن زوجته لن تعود، فليست ممن يغفر أو يتسامح في مثل هذا الأمر، لا يعنيها من قريب أو بعيد أنه فنان وأن لكل فنان كبوة كما أن لكل جواد كبوة، هي كبوة وهفوة وجنوح الإبداع، حين يستبد بالخيال ما يخرج به عن جادة المألوف إلى جنون العظمة والتميز فكراً أو سلوكاً أو منهجاً.

كان يتميز غيظاً ولكنه لا يعرف ما عساه أن يفعل.. ولم يجد من سبيل - على الرغم من كل شيء - إلا أن يحث الخطى لكي يراها.. ما فتئ في لجة حزنه يبحث عنها.. يريد أن يتفحص عينيها حقيقة ما قالت.. شك في نفسه، شك في سمعه، وقرر أن يعيد

الحوار مثل قاض يعيد التحقيق.

محال.. محال.. أن تكون حبيبته لكل الرجال.. محال ما تقول.. إنها تكذب.. تثير غيرته تعاقبه عقاباً معنوياً.. تريه الحكم القاسي المؤلم شرعاً على رجل يطلّق زوجته غضباً فلن تعود إليه إلا إذا صارت تحت رجل سواه.. ما أصعب ساعة يلتقيها ثانية، وهو يعلم أنها خرجت من نفق مظلم، سيكون مقهوراً نادماً.. ما أقسى ذلك الحكم الرادع.. لكن الردع يتطلب القسوة وإلا بات كل شيء مباحاً.

لمح في فوهة الزقاق تجمعاً غريباً طارئاً للمحلة كلها، سُدت المنافذ كأن الناس تتفرج على حريق يلتهم الزقاق كله.. ركض صبي باتجاه الرسام وقال وهو يلهث ويستدير بجسده الناحل جهة الزقاق والذعر يملأ عينه:

ـ قتلها..

لهث الصبي مثل جرو وبعد أن التقط أنفاسه قال:

ـ الحارس قتل زوجته..

ـ قتلها؟!

أضاف الرسام بسرعة:

ـ قتلها خطأ؟!

فقال الصبي هازاً رأسه وهو يفرد سبابته وإبهامه:

ـ قتلها بالرشاشة.. أطلق عليها الرصاص.. رأسها.. ليس لها رأس.. رأسها تناثر في الهواء..

هرع الرسام يتخبط بحجارة الطريق، رسم الذعر على وجهه علامات تعجب ذاهل.. قتلها؟! نظر الرسام إلى ساعته مستغرباً.. أيقتلها صباحاً.. أكان ينظف سلاحه؟!.. سيشهد بأنه أراد أن ينظف سلاحه.. نعم.. نعم.. لابد من تخفيف الحكم عنه.. ركض.. وركض إلى جانبه الصبي، دفع عدداً لا يحصى من البشر كي يخترق الزحام إلى البيت، وصلت الشرطة مع وصوله.. كان الحارس يجلس على الأرض، بوضع القرفصاء، وفي حضنه بندقيته، وكانت شعاع تنام على بطنها.. رأسها مهشم، وثيابها الأنيقة تتحسر عن باطن ركبة أبيض، بدت مؤخرتها المكشوفة، تثير رغبة أي رجل.. أستغفر الله.. ركض الرسام، وسحب شرشفاً ليغطيها، غير أن مفوض الشرطة أومأ له مانعاً إياه حتى تتم المعانية الجنائية، كان يتمنى أن يغطي عريها، واستغرب أنه لم يلحظ لشعاع أي مفاتن فيما مضى، مؤخرتها تبدو لشابة في العشرين، مكتنزة، بردفين ناضجين مشدودين، يزينهما سروال بلون أصفر ضيق ومغرٍ ونظيف، وصدرها مرتفع كأنه صدر ساهرة، سحب ضابط الشرطة الرشاشة من يد الحارس فقال له بصوت منخفض:

- إنها للحكومة..

ركضت امرأة وغطت المرأة القتيل بشرشف أبيض، بينما اقترب عامر من الحارس، لم ينبس ببنت شفة لكنه تطلع في عينيّ عامر كثيراً، كان يريد أن يقول شيئاً، خمّن أنه يريد منه

تشجيعاً، خشي أن يصيح في لحظة ضعف:

ـ أنت من حرضّني على قتلها..

لكنه ابتسم لي، وهم يقودونه نحو سيارة الشرطة مكبلاً، وجاءت سيارة أخرى حملت شعاع، فاستطاع بعض من يقف معي أن يلمح فخذيها الممتلئين الأبيضين وسروالها الداخلي القصير الأصفر، كانت ـ من الداخل ـ كأنها شابة في عمر ساهرة، وحين اختفت، ظل دمها يلطخ أرض الغرفة مثل نعجة ذُبحت للتو..

لا أدري لماذا أشفقت عليها، وامتلأت حقداً على ذلك المحامي العاشق.. كنت أتمنى أن أبصق في وجهه.. أيكون مصاباً بعقدة ما.. أم أنه يعرف صيده في وقت نركض فيه نحن خلف سراب رومانسي باهت؟!

تسلل الناس يتهامسون، وبقيت وسط المنزل، انتظر خروج ساهرة، أين اختفت؟ كم أتمنى أن تشهد المنظر الآن.. ضحية أخرى لحب فاشل سدت بوجهه المنافذ.

أنصت للشيخ لطيف يستغفر الله ويسعل بشدة بفعل نوبة ربو شديدة.. كان صوته باكياً كأنه ارتكب ذنباً.. كنت أسمعه يردد:

ـ اللهم استرنا بسترك الذي سترت به ذاتك..

انتظرت الشيخ حتى انتهى، اقتربت منه، كنت أريد حلاً لمعضلتي، قلت بانفعال واضح:

ـ تحدث معي.. فأنت شيخ مبارك!!

فأخفض رأسه وأنشد:

يا عين سحي أبدا يا نفس موتي كمدا

ولا تحبي أحدا إلا الجليل الصمدا

غدا طريق العودة إلى البيت طويلاً مملاً.. انفض الحشد وخلال المكان، كان مرسمه مهجوراً فآلمه ذلك، كان الشك يأكل صدره أن تكون ساهرة في مكان ما، مع شخص آخر « لقد ضاعت حبيبتي.. ضاعت كفريسة ضعيفة توغلت في غابة.. استحضرت جسدها في ذهني، تذكرت صدرها الناهد، وشعرها المسدل على كتفيها يغطي ظهرها العاري.. ركضت خلفها، ركضت، أمسكت بها فأفلتت نفسها، لهثت فوق عنقها كالمجنون.. حاولت أن أطرد خيالها، ليس الأمر بيدي، هل عملت من عمل الشيطان ما سحرت به روحي، أعوذ بالله.. تذكرتُ الأخبار التي كنت أسمعها عن عجوز اسمها (أم ذياب).. ليست بعيدة من هنا، تقرأ مستقبل الفرد، وتتحدث عن مكنونات صدره بحركة من أحجار لديها.. هل أجدها الآن». حثَّ الخطى حتى بلغ خربتها، لكنه تردد حين شعر بإحراج شديد إن لمحه أحد يدخل الكوخ، دار حول المكان يتلفت في كل اتجاه، خطرت له فكرة أن يلف رأسه بيشماغ.. كانت أقدامه تركض به من مكان إلى آخر كإنسان أصيب بالهستريا التي لا يعي فيها ما يسبب لنفسه من إرهاق.. عاد بهيأة أخرى، الآن لا يمكن لها أن تعرفني.. انفبض قلبي حين قالت:

ـ اسمك واسم أمك..

لماذا اسم أمي.. كأنه شعر بالإهانة، أمه ـ رحمها الله ـ امرأة مستورة لم يجرؤ أحد أن يناديها باسمها بل كانت معروفة بكنيتها: أم عامر..

لم يستغرب أن العرافة فهمت ما يريد، فلقد سمع عنها الكثير، لكنها ربطت علاجه بيوم ماطر.. تفحص الخرزة التي في يدها، قالت إنها تملأ من ماء المطر ويشربها فيسلو..

كان يرمق السماء تلهث فيها نجوم بعيدة، موعده المطر.. واللعبة الخطرة التي أوقع نفسه فيها ليس لها حل سوى السلوان.

وفكر: نحن في آذار.. وآذار شهر الزوابع والأمطار.. ابتسم متفائلاً بتيسر العلاج لكنه سأل نفسه فجأة:

ـ والإرادة؟ سأسلو بنفسي..

وعاد يسأل نفسه:

ـ ولماذا السلوان أو النسيان؟!

تذكر ما قالته أم ذياب فشعر بالخوف:

ـ ألم تسمع بالمجنون؟!

كانت معلوماته عن المجنون عامة كأي إنسان يعرف طرفاً من قصة جميل وبثينة وعنترة وعبلة وغراميات عمر بن أبي ربيعة..

والفرق أنه كان يشك في أن قيس بن الملوح قد جن حقاً.. وإذا صح ذلك فلماذا لم يحدث ذلك لسواه من المحبين إلا إذا كان حبه مما يذهب بالعقل فلا علاج ولا أمل.. أكانت ليلى تحبه هي

الأخرى.. أسعفته كتبه بالجواب.. ظلت ليلى تبكي قيساً بعد زواجها من رجل موسر من ثقيف، وظلت تحمل له في نفسها الحب الكبير، وقد روي أن ليلى وعدته قبل أن يفقد عقله بأن يزورها إذا وجدت فرصة لذلك، فظل مدة يراسلها بشأن الوفاء بالوعد، وهي تعده وتسوفه حتى أتى دارها ذات يوم، فجلس إلى نسوة من أهلها ناحية، وراح يحدثهن طويلاً بحيث تسمع ليلى كلامه دون أن تراه. ثم أنشدهن شعراً، فوقع منهن موقعاً حسنا، فقالت إحداهن: لقد ظلمك هذا الحبيب ولم ينصفك، فجعلن يضحكن، وهو يبكي، أما ليلى فقد رقت له حتى بكت، وقامت فدخلت بيتها، وانصرفت دون أن يراها، ولكنه ظل يعاود الكرة حتى تيسر له أن زارها بغياب زوجها، ذلك أن زوجها خرج يوماً إلى مكة فأرسلت ليلى جارية لها إلى المجنون تدعوه، فأقام عندها ليلة حتى السحر، وطلبت إليه أن يعيد الزيارة ما دام زوجها على سفر، وقال في ذلك:

تمتع إلى أن يرجع الركب إنهم

متى يرجعوا يحرم عليك كلامها

- ١٤ -

لم يصدق ما يرى..

أي نفس عظيمة تلك، ما أعظم شأنها، شعر كأنه كان ضائعاً في لجة البحر فاستمسك بيد كريمة منقذة.. صاح بلهفة وانكسار:

- شكرية:

دفن رأسه في حضنها وانتحب فداعبت شعره وقالت هامسة:

- مجنون..

لا يريد أن يسمع هذه المفردة، لا يحبها.. ما أحوجه إلى العقل.. أنت عاقلة.. قبّل يديها.. قبّل رأسها.. وضع وجهها بين كفيه وقبّل فمها.. قال بانفعال وخذلان:

- أريد أن أشرح لك الأمر..

فوضعت أصبعها على فمه، وقالت بحزم:

- بدل الكلام قم فارسم..

- لا أحد يفهمني سواك..

ضربت على صدره برفق وقالت:

- أزح ما في صدرك.. تقيأ همومك.. أخطاؤك.. ذنوبك.. سمها ما شئت..

واستدركت:

- عفواً.. تجربتك.. ضعها في لوحات جديدة.. فمنذ عرفتك وأنا أحلم أن أراك كبيراً..

تساءل غير مصدق ما يسمع:

- أمعقول ما أسمع وأرى.. أم أنني في حلم..

تساءلت هي الأخرى بعينيها فقال:

- أمعقول أن تسامحينني؟!

قالت جادة وقد بدت أمامه امرأة أخرى يراها أول مرة:

- هو الذي رأى.. ألست من كان يردد هذا.. رأيت ما لم تكن ترى.. خرجت كفنان برؤى واسعة بعد أن كنت لا ترى سوى أمتار من دكانك.. أقصد مرسمك.. عليك الآن أن تضرم النار في تلك الأوراق.. أعرف أن ذلك صعب عليك..

لكنني لا أجد وسيلة لعقابك إلا باثنين.. هذا ما تقوله روحي..

- عقوبة؟!

اكتست ملامح وجهها بطبقة من حزن ثقيل مثل غيوم آيلة للهطول وقالت:

- أن تحرق الماضي بيديك.. وأن تثبت لي ولنفسك ولمن يهتم بشأن رسوماتك.. أن ما مضى كان محض تجربة صقلت فنك

ودفعت بك قدماً إلى أمام.. وإن تعلقك بشيء إنما هو رمز وإيحاء!!

مرت لحظة صمت ثقيلة كأن كل منا يريد أن يخرج بحكمة كبيرة وواصلت:

- هب نفسك طفت بمعارض العالم كله.. خضت هناك تجربتك في الغربة.. ولم تسلو وطنك بل عدت إليه وأنت إنسان آخر يحمل في جوانحه خبرة العالم وتدفق الإحساس وعنفوان المشاعر..

لم يصدق ما يسمع، ولم يجرب من قبل طعم البكاء، كانت دموعه مالحة.. لكنها غسلت صدره، لم يكتشف أحد فلسفة البكاء.. أيكون له شأن في العلاج دون أن يعلم... بدأ يتخفف من ثقل كان يرزح على صدره، عرف معنى السعادة.. كاد يبرك على الأرض بين ساقيها.. أنهضته شمته، قبلت فمه مثل طفل، قالت وهي تنهض:

- سأصنع لك القهوة..

لاحظ شحوباً في بشرتها كأنها لم تنم لأيام، جلس مضطرباً لا يدري ما يفعل، تصطرع في داخله المتناقضات.. الحزن والفرح معاً.. تطلع إلى أعلى وهمس:

- الحمد لله..

تأخرت، صاح من مكانه يستحثها على القدوم، لاحظ أنها استبدلت ثيابها بشيء خفيف يكشف مفاتنها، وجهها الشاحب علته الآن حمرة خفيفة من مكياج وضع بفن ودقة، ثمة رائحة طيبة تختلط برائحة البن المطحون بالهيل.. كان في قمة سعادته،

لكنها قبل أن تصل إليه، شعرت بدوار أو ما يشبه الدوار وتهاوت إلى الأرض مع الصينية التي كانت تحملها..

- شكرية..!!

هتف مذعوراً، وقلبه يضخ دماً جديداً، وكم كان تعساً في المستشفى وهو يلف أطراف الشرشف حول جسدها الذي ظل في ثياب النوم الرقيقة...

وصلت أمها وأختها الكبرى.. الحمد لله.. كان يردد، وهمس لعمته:

- بدلي ثيابها..

قالت أختها صفية في ممر المستشفى:

- كنت مخطئاً ودفعت أختي ثمن أخطائك..

لم يتكلم فواصلت:

- كانت أكبر منك عقلاً.. كانت ذات أصل..

وأمعنت في العقاب فقالت:

- لم تكن وضيعة وبلا أصل..

شعر أنها تسبه فقال:

- أشكرك.. الموقف لا يساعدني على الرد بأي شيء..

فصاحت غاضبة:

- اضربني إن شئت..

- أستغفر الله العظيم..

خرج الطبيب فهرع إليه.. توقف لحظة ينزع عن عنقه سماعة

الفحص وقال باختصار كعادة الأطباء في إشاعة الطمأنينة لدى ذوي المريض:

- ذبحة صدرية.. لكنها ستكون بخير..

- زوجها؟!

تساءل الطبيب فقال يزدرد ريقه بصعوبة:

- نعم..

- عامر؟!

هز رأسه مرة أخرى.. فسأله الطبيب:

- هل تعرضت لأزمة أو صدمة مفاجئة؟!

هزَّ رأسه بالإيجاب.. كاد يقول له بسببي كمن يعترف ليرتاح.. فقال الطبيب وهو يبتسم:

- كانت تردد اسمك..

كان وجهها مصفراً.. كان ثمة زرقة حول شفتيها.. وحول عينيها.. عصر الألم أمعاءه.. تهدمت مثل بناء تعرض لصاعقة.. أو معدن تفاعلت فيه تركيبات كيميائية طارئة فأحدثت فيه تحولات مؤثرة.

كيف السبيل إلى العود.. تمنى لو تسمعه الآن.. لقال لها كما كان يفعل.. ما يشيع في نفسها الطمأنينة.. أية حيرة هذه التي وجد نفسه ملقى في أتونها.. كان يتأمل نفسه، فيشعر كما لو أنه يتأمل شخصاً آخر لم يكن يعرفه، أين كانت مشاعره نائمة غائبة عن زوجته؟!.. أكان الاعتياد والمألوف هو ما أثقل صدره

ودفع به إلى جموح لم يحسب له حساباً؟!

جنوح العاطفة أو جموحها شيء غريب عليه برغم أحاسيسه المرهفة، وأشواق روحه التي تهفو لكل نسمة أو صوت أو نأمة.. مشاعر هائجة في داخله كأمواج البحر لكنه كان طوال تلك السنين يجيد لعبة الترويض.. ترويض مشاعره.. وكان الرسم منفذه الوحيد لضبط إيقاع حياته.. فليس لديه مصدر رزق آخر غير رسوماته وخطوطه التي كانت تزين البيوت والمقاهي والمحلات.

ظهراً عاد مع صفية، قطعا ساحة الباب المعظم سيراً، كان هواء آذار منعشاً.. توقف عند محل خشبي صغير وطلب زجاجتي ببسي كولا.. نزلت في صدره باردة منعشة.. تبادل مع صفية نظرة صامتة.. قبل قليل انفعلت فسبته، لم تعتذر لكن صمتها بدا عميقاً، كانت نظرات المارة، والصبي صاحب المحل تلتهم قوامها الجميل، تذكر ساهرة.. كان فستان صفية بألوان متناسقة، لو كانت لديه فرشة ولوحة لرسمها الآن.. قال مع نفسه مستذكراً غضبها وانفعالها:

- إنها في مقام أختي.. ولكن كيف غفر لها زوجها تلك الهفوة التي ارتكبتها مع جارها في لحظة ضعف وطيش؟! أكان عاقلاً أم كان خاطئاً.. ترى لماذا لم أغفر لساهرة؟!

أوصل صفية بسيارة أجرة بلا حوار في أي شأن، وعاد من فوره إلى المنزل، كان الصمت شاملاً ومربكاً له، أخرج رسائل

ساهرة وصورها، وفي المطبخ هيأ إناء كان يستخدم مبخرة فيما مضى، وصب قليلاً من النفط، وقبل أن يضرم النار في كلمات الحب التي التهم سطورها مراراً، راودته رغبة في مطالعتها لآخر مرة، كمن يلقي نظرة وداع على عزيز ينقل إلى مثواه الأخير.

غمغم في نفسه:

- هي ذكرياتي على أية حال..

تداعى على كرسي خلف منضدة الطعام، وفض الرسالة الأولى، كان الخط رديئاً لكن الكلمات منتقاة كأنها نقلت من مصدر ما على الرغم من أنها أقسمت له بأنها تكتبها بنفسها:

«إن روحي يا حبي أسيرة بين يديك.. ووجودي وكياني كله ينطق باسمك.. فحاول أن تثق بصدق عاطفتي.. حاول أن تصدقني.. حاول أن تصدق كلمة الحب التي أنطق بها بكل إحساسي وبكل شعوري.. أحبك.. لو أملك بحار العالم كله لذرفتها دموعاً في حبك.. أريدك حنوناً صادقاً معي.. أريدك بكل مشاعرك.. بكل عواطفك فأنني أحبك.. أريد أن أعلم العصافير لغة حبنا لتملأ هذا العالم شدواً وألحاناً.. أريد أن أعلم كل طفل أن يلثغ باسمك فلقد وجدتك في براءته.. من حبنا ألفت أنشودة الخلود، وخلدت أرواح العشاق.. من حبنا أوجدنا دفء الشمس.. من حبنا زرعنا السنابل وأطعمنا دماءنا خبزاً للناس.. من حبنا ترتوي البراعم الخضر ومنه تستمد الأرض ضوءها..».

وفي رسالة أخرى ختمت بأحمر الشفاه.. وبدت ليست من كلماتها:

«أنت أقرب الناس إلى روحي.. وأنت أقرب الناس إلى قلبي.. ولكنني أحب جميع الناس.. أحبهم دون انتخاب ودون غربلة.. أحبهم كتلة واحدة لأنك منهم.. ولأنهم من روح الله.. ولكن لكل قلب قبلة خاصة، لكل قلب وجهة ذاتية يتحول إليها ساعات انفراده.. لكل قلب يشتاق إليه.. لينسى ما في الحياة من الألم.. وقلبي يتجه إليك..».

كان متأثراً بهذه الرسالة فقد كتب تحتها:

«ما أجمل رسائلك.. ما أجمل هذه الرسالة.. اكتبي المزيد.. وأعطني جبينك.. هذه قبلة لكِ.. وقبلة أخرى عند اللقاء..».

وفض رسالة أخرى كانت محاورة بينها وبينه كتبتها من وجهة نظرها:

«عامر: بحثت عنك في طرقات المدينة.. في الألوان.. في وجوه البشر فلم أجدك..

ساهرة: عشرون عاماً هي كل عمري لم أعرف أنها كانت تصنع لك.. توقد لك ذات ليلة مثل شمعة بعشرين لوناً.. ترى أتحبني حقاً؟! ترى حين تتملكني هل تفكر في أخرى كما فكرت بي بعد عناء وشقاء ووحدة مع سواي؟!

عامر: في نفسي شيء لا يعرف القناعة ولكنه ليس طمعاً.. مشكلتي أنني لا أريد إبدال تلك ولا تغيير هذه..

ساهرة: لم تقل أتحبني؟!

عامر: أحبك حباً لو تحبين مثله أصابك من وجد عليّ جنون

ساهرة: اسلم لحبيبتك..

في رسالة أخرى اختارت أن تكتب بلهجة العامة فقالت:

«ما أنساك لا والله.. ما أنساك.. يا ريحة هيل.. يا عنبر يروح الروح.. يا من أنتظر بالطيف هم شوفاك..».

أخرج رسالة أخرى لكنه شعر بالدوار، تطلع إلى صورتها تلتف نصف التفاتة وفي عينها طيف ابتسامة.. شعرها ينساب إلى الخلف مثل شلال.. وفي عنقها عقد يكاد يلتهم بياض صدرها..

صرخت صفية في رأسه على حين غرة:

ـ كنت مخطئاً ودفعت أختي ثمن أخطائك..

وقالت شكرية:

ـ عليك أن تحرق الماضي بيديك.. تلك عقوبتك..

نهض من فوره.. جمع الرسائل كلها.. امتلأت المبخرة.. كانت تحدق فيه في التفاتة نصفية كأنها طفلة توأد.. سحب صورتها ووضعها جانباً.. صورها الأخرى بقيت في المبخرة لم تكن بقوة هذه، لقطات بعيدة غير مؤثرة.. جعل الرسائل في وجبتين.. التي قرأها وجبة أولى.. رش قليلاً من النفط، أزعجته الرائحة، بشيء من التردد وقلبه يخفق كمن يهم بارتكاب جريمة، أضرم النار فيها فارتفعت ألسنة اللهب على نحو مباغت لم يقدر عواقبه.. امتلأ المطبخ بالدخان وتسرب إلى المنزل..

سارع ففتح البوابة وسحب خيط الساحبة الهوائية وظل يتابع النار وهو يلهث.

فكر أن يحتفظ ببقية الرسائل والصورة لكنه سمع صوتها بوضوح:

ـ في المدة الأخيرة.. فقدتُ توازني.. تصرفتُ برعونة..

تلبسه الغضب، أحس أن جسده يرتجف وأنه على استعداد لارتكاب جريمة، أمسك بالمبخرة من ذراعها وخرج إلى بوابة المطبخ، وضع الرسائل كلها مع الصورة وسكب النفط كله.. وأضرم النار فأصدر اللهب صوتاً مسموعاً وهو يتقد..

تراجع إلى الخلف، أسند ظهره على الحائط.. كان يلهث.. والنار ترتفع تلتهم الكلمات التي بخرت البيت كله داخله وخارجه.. دنا من النار.. كانت تبتسم له.. دفع حافة الصورة بإصبعه فمسه لسع النار.. بلل أصبعه بلعابه متألماً كمن لدغ.. بينما راحت النار تلتهم شفتيها اللتين طالما قبلهما بشوق وشعرها وعنقها والعقد الذي كانت ترتديه.

- ١٥ -

جاءت لجنة ترحيل أصحاب الصرائف وختمت هوية الأحوال المدنية له ولزوجته، قال محتجاً:

- بيتي ليس صريفة..

فقال موظف الإسكان:

- المنطقة كلها سترحل..

كان الموظف يتحدث وكأنه حفظ الكلمات عن ظهر قلب، أو كأنه كلف بتلاوتها في وجه كل من يعترض..

قالت له شكرية وهي تجره إلى الداخل:

- اسمع لا أريد هذه المنطقة.. ابحث لنا منذ غد عن منزل بعيد.. أريد لك مرسماً وسط بغداد.. لا في زقاق ضيق.. لا نريد قطعة الأرض ولا نريد تعويضاً.. إن كنت تحبني حقاً افعل ذلك..

كان يريد راحتها بأي شكل، فرأت في غضون أسبوع بعض ما تمنته واقعاً ملموساً... فلقد صار كأن كاميرات خفية تنصب في مكان ما تصور كل حركة من حركاته.. وحين هبطت

السيارة إلى الشارع العام سمع صوت المخرج يصيح: «ستوب».

وجد في زيد الخزاف كل ما يتمناه في صديق، إنه فنان وموسيقار وشاعر وراوٍ لطرائف تجعل المرء يرفس الأرض ضحكاً ناسياً كل همومه.

قال له حين استقر بهما المقام في المرسم وهو يتفحص لوحاته:

- اسمع يا صديقي عامر.. لكي تصبح فناناً عظيماً يلزمك العناية بفنك.. لابد من الإطلاع على مدارس الفن التشكيلي عبر عصورها المتنوعة والتأمل في الفنون الغربية مع احتفاظك بشخصيتك المستقلة..

وبرأيي تحتاج إلى هجر هذا النمط من رسوماتك لتتخصص بلون ما.. اتجاه ما يمثلك.. وإذا أردت رأيي فأن حضارة وادي الرافدين خير رافد لك.. سومر وبابل وأشور فهي تملأ متاحف العالم وتعد أعظم دلالات عظمة العراقي وحضارته.. لذا سيعرفونك حين تزورهم.. لأنك تحمل هوية عالمية.. العالمية يا صديقي تبدأ من رمز كبير هو الوطن.

سكت دقائق وأضاف:

- أكملت دراسة الاختصاص العالي في فن الحفر (الكرافيك) في انكلترا.. زرت القاهرة وبيروت ودمشق وباريس وواشنطن ولندن وإيطاليا وألمانيا.. وحصلت على الميدالية الذهبية في الحفر من القاهرة.. وجائزة تقديرية في روما.. كل ذلك لم يأت من فراغ.. كنت أعمل طوال اليوم.. كنت أتأمل لساعات رسومات وأعمال

عمالقة الفن منذ عصر النهضة الأوروبية.. فإن شئت أن تقفز بفنك إلى هذا المستوى فاجعل هدفك الأفق البعيد.. وستظل تمشي وهو يناديك دائماً ويفتح ذراعيه في شروقه الجميل وغروبه الحالم.. الإبداع سعي دائم.. وهم دائم..

نهض الخزاف من كرسيه وتأمل لوحة في المعرض، دخن من غليونه وسأل:

ـ لوحة رائعة.. معبرة.. كأنها المونوليزا.. ما اسمها؟!

قال الرسام:

ـ الساهرة..

ظل الخزاف مسمراً قبالة اللوحة.. وضغط التبغ بأصبعه لكي يستعر وقال:

ـ كأنها تحدثني أو تريد أن تقول شيئاً.. هل تعرفها؟!

هزَّ الرسام رأسه وأطرق حزيناً.

قال الخزاف:

ـ إن شئت بعت لك هذه بسعر مغر لأصدقاء من خارج البلد..

قفز الرسام من مكانه وقال:

ـ لن أبيعها..

وكرر:

ـ ليس الآن.. أقصد ليس الآن..

اقترب منها وفكر: دعها هنا مثل شيء محنط.. دعها قبالتي كي أتذكر ما فعلت بي فأرسم.. دعها تكون قضية العمر.. أريد

شيئاً يغذي النار في المبخرة طوال العمر.. أريدها رمزاً لا حقيقة.. لا أريدها بذاتها لكنني أريد محفزاً كفارس يعلق سيفه قرب رأسه متحفزاً لقتال.. لقد رسمتها بإحساسي قبل أن أرها حقيقة.

في المساء، كان مع زيد الخزاف يشرب الخمرة، حفز فيه الطموح والتقدم إلى القمة، وعلمه في لحظة قلق احتساء الخمرة والتلذذ بدخان السجائر الفاخرة.. وحين ارتشف الكأس الأولى ودبت في ثنايا روحه، صار شفافاً مثل قطعة زجاج ورقيقاً مثل ورق الأشجار، وحين غنى زيد تحت تأثير الشراب مقلداً صوت أم كلثوم، كاد الرسام يغادر المكان كله برغم تأخر الوقت ويقف على أطلال حبيبته مستذكراً أياماً خلت كانت فيه ملاذاً لأحلامه وموطناً لأشواق روحه القلقة.. وقرر في الصباح أن يمضي إلى هناك، عله يعثر على أثر أو ذكرى.

بعد الكأس الثالثة سرد الحكاية كلها للخزاف، منذ لمحها من سطح البيت حتى اللحظة التي افترقا فيها وكل منهما يخدش روح الآخر بسكين الفراق.

في أثناء الكأس الرابعة، توغل أكثر، فوصف لصاحبه ثنايا جسدها البض، وصدرها الناهد الذي طالما احتضن رأسه المتعب، في الكأس الأخيرة، حكى له بصوت واهن، قصة السلوانة التي لم تتح له الظروف فرصة تناول ماءها السحري، فقد ظل طوال شهر آذار ينصت بعد منتصف الليل هطول المطر، انتظر أن تمطر صباحاً أو في المساء لكنها كانت سنة جفاف قاسية بخلت فيها

السماء إلا في ليالٍ كان من المحال عليه إتيان أي حركة فيها.

كان زيد طوال الوقت يعب كؤوس الخمرة عباً ويملأ غليونه من محفظة التبغ وهو ينصت دون أن ينطق بكلمة، كان حزيناً كأشد ما يكون الحزن، وأيقن عامر الرسام أنه أفسد على صاحبه متعة السهرة بقصة مؤلمة.

قال الرسام:

ـ زيد.. لقد آلمتك بحكايتي.. لكنني كنت أروح عن نفسي.. لقد أنساني الشراب نفسي.. لن أقرب منه ثانية.. أشعر بحزن شديد لأنني أفسدت عليك متعتك..

فقال زيد بلسان ثقيل وعينين حمراوين:

ـ أنا حزين ومقهور على شيء آخر..

ـ أي شيء..

قال كأنه يحلم:

ـ نحن في قرية صغيرة.. من يصدق؟!

لم يفهم الرسام حرفاً مما قاله صاحبه، فقرب وجهه منه وقال:

ـ زيد.. هل سكرت؟!

ـ في قمة وعيي..

ـ ما بك.. إنك تخيفني..

فقال على نحو مفاجئ:

ـ أريدك أن تذهب معي الآن إلى بيتي..

صاح الرسام فزعاً وهو يحدق في ساعته:

- الآن..

فقال زيد:

- الآن..

قال الرسام الذي أيقن أن صاحبه أفرط في الشراب:

- سأوصلك حتماً.. فلا أصدق أنك قادر على أن تصل بمفردك..

بعد نصف ساعة، وجد الرسام نفسه في منزل زياد، قبالة سرير يضطجع عليه شاب في مقتبل العمر، كان الشاب مريضاً، كأنه نزف دمه كله.. يلف رأسه بيشماغ كذلك الذي لفه يوم قصد أم ذياب.

- من؟!

فقال: أخي هاني.؟.

- ما به؟! مم يشكو؟! أهو مريض؟!

أومأ إليه أن يجلس، فتداعى على كرسي قريب وهو ما ينفك يتفرس في ملامح الوجه الشاحب والعينين الجاحظتين اللتين لا تطرفان وهما تتأملان السقف.

قال زيد:

- هذا أخي هاني.. مريض بحب ساهرة.. إنه عاشق ولم يجد سوى السلوى مثلك.. ساهرة التي حدثتني عنها الآن..

- ساهرة؟!

فغر الرسام فاه، وخفق قلبه مضطرباً، وشعر بالاختناق

والإرباك.. بأي أسرار تفوَّه هذه الليلة.. وهل يعقل أن تدور الأحداث على هذا النحو الذي يستعصي على التصديق.

لخص له القصة، فقال الرسام:

ـ أعرف جانباً منها.. يا للعجب، أهو هاني الذي ذكرت اسمه لساهرة؟!

ـ كيف؟!

نطقت باسم هاني ذات يوم وهي في لحظة انتشاء وخدر.. لكنها أنكرته..

وأطرق لحظة متأملاً ومستحضراً ما جرى بألم وقال:

ـ كان هاني هو نقطة الخلاف التي فرقت بيننا.. كان شبحه حاضراً على نحو مؤثر ومزق ما بيننا من حب..

قال زيد:

ـ كل ذلك ليس مهماً الآن.. أريد أن تساعدني في إنقاذ أخي..

ـ قل..

ـ إما أن نجعله يلتقي بساهرة أو تساعدني على إحضار أم ذياب التي حدثتني عنها وخرزتها العجيبة عله يسلو..

ـ هل شخّص الطب حالته..

هزَّ زيد رأسه بالإيجاب وواصل كلامه:

ـ الكآبة أو الاكتئاب النفساني..

قال عامر:

ـ أليس الأمر بسيطاً؟!

هز زيد رأسه وقال:

ـ تفاقم الأمر عليه خضع لعلاج بالكهرباء فقد بلغت الكآبة أشد حالاتها لديه.. أصبح يعاني من التشوش الفكري والذهان..

قال عامر مستغرباً:

ـ لم أكن أعتقد أن الكآبة على هذا النحو من الخطورة..

فقال زيد بثقافته المعروفة وقد زال عنه مفعول الشراب تماماً:

ـ أوضح علماء النفس الآلية النفسية اللاشعورية للكآبة.. فعندما يفقد الإنسان شخصاً عزيزاً وحبيباً إليه، أو ربما شيئاً أثيراً عنده، فإنه يحزن عليه ويغضب منه لتركه إياه وحيداً.. فكأن الفرد يلوم فقيده ويكرهه لما فعل به.. ولكنه لا يستطيع التصريح بهذا الكره والعداء لحبيبه، فينتج عن ذلك لوم وتوبيخ للذات التي تمادت في كره الفقيد، وهذا هو عين الاكتئاب الذي يعد تعذيباً ومقاساة للنفس.. فالكآبة عداء مكبوت.. وقد يتحول العداء إلى قتل النفس أي أن قتل النفس يصبح بمثابة قتل الآخر (الفقيد) الذي امتزج واندمج بالنفس وأصبح جزءاً منها.. وهذا ما يفسر الانتحار مثلاً..

عاد إلى البيت فجراً كانت شكرية تنام بهدوء مثل طفلة لعبت وأكلت ونامت.. شعر بالغثيان وهو يسترجع وجه هاني الذابل، ركض إلى المغسلة ودلق أمعاءه كلها.. كان طعم معدته مراً وساخناً.. شعر بجرح في بلعومه.. لكنه ارتاح، هرعت إليه زوجته فزعة، وقالت جزعة:

ـ هل عدت للشرب.. ألم تعدني؟!

دخل الحمام، وقف عارياً تحت رشاش الماء، واغتسل معاهداً نفسه أن لا يعاود الشراب بعد اليوم مطلقاً، هيأت له شراباً ساخناً وملابس نظيفة. وقالت له:

ـ أتسمع آذان الفجر.. توضأ وتوجه لتستغفر ربك..

نام حتى العاشرة صباحاً، وفي الظهيرة كان يصطحب هاني برفقة زيد إلى (تل محمد) لعلهم يجدون أم ذياب.. هزت المرأة يدها ضجرة وقالت متبرمة وهي تدفع صينية وضعت فيها سمكة وبصلاً:

ـ أتبحثون عن السلوانة في عز الحر؟! من أين أجيء لكم بالمطر؟!

عادوا محبطين، لكنهم عطفوا على النزل الكبير علهم يجدون أثراً للفتاة.

كان البيت مهجوراً وقادوا المريض إلى الجامع بحثاً عن الشيخ لطيف.. مسح على رأس الفتى، وقال وهو يضحك ربما لأول مرة في دعابة الشيوخ:

ـ ساهرة ذاقت عسل حبيبها ولم تعد تذكر أحداً..

قال عامر مستفهماً:

ـ ما الذي تقوله حفظك الله..

ـ لعلها تزوجت فقد رافقت شاباً يحبها اسمه على ما أذكر، عبد الله منصور، شاعر وصحفي شاب مثقف جاء إليها بعد بحث

وشوق!!

- وكيف اقتنعت بهذه السرعة؟!

تبسم الشيخ وقال وهو يفتح ذراعيه على سعتهما:

- جاءها بديوان شعر مطبوع من ألف صفحة، وكله يتغنى بها.. فكاد يغمى عليها، بدا هو كالمجنون هياماً وشوقاً.. ولم يكن بوسعي إلا أن أكون وسيط خير..

- شيء عجيب لا يصدق!!

- وأين هي؟!

- الله ورسوله أعلم..

بدا الأمر حكاية مزعجة، مضحكة، مؤسفة، مؤلمة.. ليلى في أحضان رجل آخر، والمجنون يلقي أشعاره لرمال الصحراء.. تتعطر كل ليلة لرجل من ثقيف وقيس يهجر طعامه حتى يموت..

يكاد يجزم أن الرجل عاد من مجلس العزاء وافترش ليلى سعيداً، يطعن حتى الصباح متخلصاً من عبء ثقيل وشبح مزعج كان يفسد عليه متعته ومشتهاه.

كأن هاني سمع كل شيء ووعى كل شيء، فلقد عاد إلى فراشه وقد أصر على أن يظل ساهماً يغلق فمه عن كل طعام..

عبثاً حاول الأطباء معه، ذهبت أدراج الرياح أحاديث الإرشاد والتوجيه التي أدلى بها الرسام عند سريره علّه يعيد إليه ثقته بنفسه.

في اليوم الثاني، فوجئ زيد والرسام بهاني وقد جلس سعيداً

مرحاً كأنه تماثل على نحو مفاجئ للشفاء.. وصف لهم ساهرة كمن يراها أمامه، استعاد ذكرياته بذهن صاف وكلمات مترابطة، وجعل يحلل سبب المشكلة في تصرف شقيقها قدوري الذي قرر أن يغادر معها البصرة إلى بغداد وتمتم: نحن ألعوبة تاريخ مؤسف لسوانا.. نزر وزر غيرنا كل يوم بلا ذنب!!

وقال يعنف نفسه:

ـ فقدتُ حبيبتي وفقدتُ أمي..

وأفرد أصبعه وقال محذراً:

ـ إياكم والحب..

وعاد إلى فراشه منهكاً.. طلب جهاز تسجيل ليستمع إلى أغنية لأم كلثوم.. ظل ينصت إليها مستغرقاً في تأمل حالم طويل..

تبادلتُ مع زيد نظرات تائهة حائرة، بعدئذ قلت بتصميم:

ـ لا تقلق سوف أعالج هاني..

سألني بحذر:

ـ بساهرة..

ـ بالموسيقى والرسم..

قطب حاجبيه مستفهماً فقلت له موضحاً:

ـ الموسيقى لأنه يحبها ألم تنتبه إليه كيف استغرق مع الأغنية والرسم لأنني جربته في أزمتي..

في اليوم التالي، جئتُ بفرشاة ولوحة تقف على ساند، وألوان زيتية، ومسجلة صغيرة مع عدد من الأشرطة لموسيقى هادئة..

وطعاماً خفيفاً وسوائل دافئة، ورحت أدير الشريط قرب رأسه، واضع اللوحة مع الأصباغ وأحاول جاهداً أن أخطط وجهاً.. بدأت بالشعر، وجعلته يشبه شعر ساهرة غير أنه ظلّ يحدق ببلاهة، رحت أستحضر العينين، أبرز ما في وجهها، فجعل ينتبه، قدمت له الفرشاة، فقال ذاهلاً:

- أرسم..

انهمك في الرسم، مع ارتفاع بسيط في صوت الشريط كخلفية للحركة.. كان مشغولاً، يعمل بلذة كمن يقبل على طعام شهي، قدمت له قدحاً من عصير، فعبه بلا انتباه، قلت له على سبيل الاختبار:

- كان شعرها طويلاً..

فقال مبتسماً وبتركيز واضح:

- أعرف..

تسللت من الغرفة، وحين عدت في اليوم الثاني كانت امرأة على اللوحة، ولكنها أشبه بطائر له أجنحة وأصابع طويلة تمتد من تحت تحاول اللحاق به دون جدوى.. كان يضع إطار من ألوان مختلفة وقد وضع شريطاً آخر، كان سعيداً وقد رد تحيتي بتركيز، جلست أطالع في ما جلبته من كتب ومعلومات عن العلاج بالموسيقى والرسم.. علمت أن خطوتي كانت سليمة، فلقد أفادت المصادر أن الرسم بما يحمله من عنصري الشكل واللون، يحمل طاقة تعبيرية عن مكنونات النفس من دون حرج، لأنه لا

يحمل القيود التي تحملها الفنون الأخرى ولذلك فإن له أهمية تشخصية وعلاجية كبيرة، لا تتوفر في الكلمة مثلاً لأن بعض الصور والخيالات لا يمكن نقلها إلا عن طريق الرمز، فيجنب الرسام الخجل والعار والشعور بالإثم التي ترافق الكلمة، فالرسم يبقى في منأى عن هذه المحاذير، ويستطيع هاني الآن أن يقول ما يريد دون إحراج.. يستل من أعماقه ما يشكل مشكلة له.. هو في هذه اللوحة يريد القول أن ساهرة أفلتت منه كطائر بعيد.. المهم أنه يعمل أنه يأكل ولم يمت مثل المجنون بإباء الطعام. بقيت لديّ الموسيقي، لقد سبقت الرسم، بل هي أقدم وسيلة علاجية، فالمعالج كان يستخدم الغناء أو قرع الطبول أو الدفوف أو خرير السيول والشلالات.. وفي فجر الحضارة العربية مارس الأطباء الموسيقى والغناء كواسطة علاجية خاصة في حالات الاكتئاب ومن أشهر الداعين إلى هذا الأسلوب العلاجي ابن سينا والرازي وابن رشد، وقد كان للعرب الأثر الهام في نقل هذا الأسلوب إلى أوروبا عن طريق الأندلس وشمال أفريقيا.

إن للموسيقى ميزات علاجية كثيرة فهي تشغل المريض عن التفكير في حالته المرضية وتقلل من شكواه وما تسببه الشكوى من لجاجة بالمريض ومن إزعاج للآخرين.. وعلى هذا النحو يمكن للمريض النفسي أن يتحكم بحالته المرضية بدلاً من أن تسيطر شكواه على عاطفته وفكره.

كنت أشعر بارتياح كبير حين أراه يستبدل الأشرطة وينهمك

في الرسم.. وصار يستغني عن الأقراص المنومة فيتعب وينام، بعد أسبوع رأيته مع زيد، ينهمك في تلوين الفخار وفي ترتيب الخزف وفي تنظيم المعرض.

عانقني زيد والدموع في عينيه وقال:

- لا أعرف كيف أشكرك.. إنك إنسان عظيم..

كان الموقف مؤثراً بالنسبة لي.. فزياد لا يعلم إنني مستغرب مما أرى.. أحقاً أن هاني استجاب لخطواتي البسيطة التي لم ينتبه إليها أولئك الأطباء الذين سلطوا الكهرباء على رأسه.. أم أنهم حققوا تلك الرجة التي أزاحت من دماغه كل الأفكار غير المرغوب فيها وجعلوه مهيئاً لتقبل اختياراتي؟! لا أدري.. لكنني كلما رأيته جالساً في المعرض يشرب شاياً ويهمس بلحن جميل ضحكت في سري من أم ذياب ومن خرزتها المسحورة فالسلوان يمكن أن يكون بالعمل أو بالفن أو بأية مفردة أخرى لها صلة بالعلم والمعرفة.

عانقت زيد وصافحت هاني.. فلقد عزمت على السفر لإتمام دراستي.. كنت أريد أن أخرج بزوجتي من أزمة قد لا تطيقها.. كنت أريد أن أنجح في علاجها كما نجحت في علاج هاني.. كنت أسأل الله في كل فجر أن يمدني بالصبر والقوة.. كنت أسأله صادقاً في كل فجر.. وكنت أتضرع إليه في كل مساء.. ولعله - سبحانه - استجاب لدعائي..

غير أن ما حيرني بل ما أفضى إليّ بحكمة جديدة لم أكن

أعرفها هو أن الطبيب الذي يعالج مريضاً ينبغي أن لا يكشف سر مريضه له، بعد أن يتماثل على يديه إلى الشفاء.. نقطة العودة إلى البداية شيء خطير في الحب.. لا أدري ما الذي جعلني أحكي لهاني قصتي مع ساهرة كأنني وقد رأيته يتماثل للشفاء، وجدت من الممكن أن أفاجئه بقصة لن تعني له شيئاً.. لكنه التفت إليَّ حزيناً وقال:

ـ أحقاً حصل هذا؟!

تركته.. وكم كان مؤلماً أن أعلم تأثير ذلك عليه.. كان الأمر مؤسفاً.. فلقد عاد إلى تردده وإلى عزوفه عن الطعام..

حاول مراراً أن يتذوق الطعام لكن نفسه تأبى ذلك، كان الجوع يعصر أمعاءه لكنه لا يريد أن يأكل، كان ضجراً يشعر بالسأم والحزن والكآبة.

أخرج الساعة العريضة التي تركتها عنده ذات يوم صعب، قلبّها، عبّرت أسارير وجهه عن كآبة عميقة، امتلأت عيناه بالدموع.. قال من بين دموعه يخاطب طيف ساهرة.. حبيبتي.. مذ حملك القطار في تلك الليلة الحزينة وأنا أعيش فارغ القلب، جسداً ثقيلاً كأنه عبء تنوء به روحي.. روحي المريضة التي لم أجد من يعالجها بعدك.. أين أنت الآن.. في هذه اللحظة التي أنتظر فيها الموت إذ لم تعد الدنيا كلها تصلح لبقائي فيها من دونك.. طيفك يلاحقني والذكريات تحاصرني ولم يعد بمقدور أي شيء إدخال السرور إلى نفسي.. ليس سوى ضحكتك الحلوة وأحاديثك

الهامسة ورائحتك التي تجدد الحياة في خلايا نفسي وروحي.. ساهرة.. هل من يخبرك أنني رحلت متيماً بك.. أسعيدة أنت مع رجل آخر سواي.. يقينا أنك شغلت عني بالزوج والأطفال.. أم أن ذكرى حبنا تحاصرك في كل مكان.. أم أن لدى المرأة قوى خفية تعينها على النسيان بينما نعيش نحن في أسى دائم على ذكرى وطيف الحبيب.. ليس لي من أمنية سوى رؤية وجهك.. ترى هل أراك في الجنة.. أيبعث الله سبحانه العشاق صفاً كالشهداء.. أليس المحب شهيداً؟! ألم يرد في الأثر أن من حب وعف ومات مات شهيداً؟! أيكون موعدنا هناك.. ولم لا؟! فالله سبحانه رحمن رحيم.. ليس له قسوة من في الأرض من عباده.. وإلا ما معنى أن يحرم محب من حبيبه.. رفيق روحه.. وشذى أيامه.. وعطر حياته..

سقطت الساعة أرضاً.. همس اسمها بصعوبة ساهرة.. وكان يموت.. أما الطعام الذي في الآنية وقد تركه ثلاثة أيام فقد انبعثت منه رائحة قوية منفرة حيث لم يزر الغرفة أحد.

- ١٦ -

لم يعد في مقدور عامر الرسام أن يبقى تحت وطأة تلك المتغيرات الصعبة، تصرف في كل لوحاته باستثناء لوحة (الساهرة) ومضى مع زوجته إلى الخارج مقرراً أن يواصل العمل والدراسة.. متخذاً من ترحيل أصحاب الصرائف ذريعة للانطلاق إلى سماوات أخرى، فليس بإمكانه أن ينشئ داراً جديدة الآن وبلا تعويض، وليس بوسعه أن يعيش في نطاق ضيق لا يجد فيه مخرجاً لتوسيع آفاق رؤاه، لم يعنه الشيخ لطيف وخذلته أم ذياب وآلمه موت الشاب وصدمه زيد بحقيقة صلته بهاني.. وهاله زواج ساهرة المفاجئ، حتى موظف الإسكان قلب البيت إلى صريفة وبدلاً من أن يقدم له وصلاً مختوماً ختم جنسيته ذات اللون الوردي الفاتح بختم أزرق مثل علامة فارقة على سني الفاقة والعوز والحرمان.

لكنه في فرنسا كما في إيطاليا، عانى انقباض الوحدة وألم الفراق، فما كان يضيق به صدره من بشر أو أماكن صارت الآن

في مخيلته فراشات جميلة يريد أن يمسك بها دون جدوى.

عرف هناك قصائد السياب، وحفظ بيتاً للمتنبي من أحد المغتربين الذين يحنون إلى بلدهم، ظل يردده كلما ضاق به المكان:

تغرب لا مستعبراً غير نفسه

ولا راضياً إلا لخالقة حكما

أحس نفسه هناك، شديد الحساسية، حاد الطبع، لكن امرأته الذكية الصبور كانت تمده بالحكمة كلما احتاج إليها.. قالت له:

- نريد أن نستثمر وجودنا.. نعود بالخبرة والشهادة..

وشدت قبضتها أمام عينيه وقالت:

- أريدك أن تنتزع فرصتك من فم الأسد..

مضى جاداً، وهو يحمل لوحة الساهرة ويضعها مثل تعويذة مباركة، في صدر كل متحف، وقد قرأ لفنان عالمي قوله «يخيّل إلي أنه مزية لا يستهان بها أن يستطيع الرسام أن يضفي على أشخاصه أشكالاً سارة».. وهكذا وجد تبريراً لهذه الفتنة الساحرة الغامضة في وجه حبيبته، كان يجاهر بالقول.. الحب كل شيء في حياتي، لقد قلعت من صدري أي جذر للكراهية وزرعت كياني كله بالحب.. وحبي يتسع لتلك الإنسانة الطيبة التي رافقتني ومضت، ولتلك الصبية التي هبطت ذات يوم مثل حمامة، وصارت معنى ورمزاً.. وليت حبيبتي مثل ليلى يعلم بحبها

ذلك الذي تزوجها.. ليت لي قدرة عمر بن أبي ربيعة وجميل وعنترة.. ما أجمل أن نجاهر بالحب، ونفاخر به، فليس حالة عادية أن تشتاق إليك امرأة حتى الهيام وأن تهتم بامرأة حتى الجنون.

ربما أصل إلى حكمة الجهر بحقيقة التناقض بين عقائد المرء وعلاقاته الشخصية، بين توافقه مع الواقع وتمرده عليه.. عندئذ شعرت هناك في الغربة، بحاجتي إلى الكتابة تعلمت لغة الحياة اليومية في غربتي، لكنني كنت أحاول جاهداً أن يكون لي أسلوب متميز في التنظير بالعربية، فحين أعود إلى بلدي عليّ أن أنشر ما تعلمته، وأن يكون لما أكتب معان ودلالات معبرة ومؤثرة.. كنت أرى في التجارب العالمية من حولي ما يمدني بالعزم، فمن طريف ما يروى أن كوكتو سأل بيكاسو يوماً:

- ما رأيك في رسوماتي؟!

فقال بيكاسو ضاحكاً:

- إنها بجودة كتاباتي..

القضية بالطبع، ليست دائماً قضية جودة، بقدر ما هي قضية ضرورة لذوي القوى الخلاقة الذين يتميزون بأنهم رواد الرؤية والذوق في عصرهم.

- ١٧ -

بدا واهناً، كأنه بلغ أرذل العمر، صار صعباً عليه قطع طريق تمتص صحة الإنسان وجهده، لم يعد لديه ما يكفي لتذاكر غالية الثمن، كأنه عاد إلى نقطة الصفر، وبدأ العد بالاتجاه المعاكس المضني، يا رب، جاء النادل بالطعام ورفعه مراراً دون أن يمس، ثلاثة أيام لم يذق شيئاً وتمتم: «جاء أوان السلوان». إنه عمر طويل، تجارب شتى، وجوه لا تحصى، لكنه يكاد يقسم أنه لم يلبث غير ساعة، ساعة واحدة، فها هي معه وها هو شاب، يجلس في المرسم ينتظر قدومها، كانت تأتيه عصراً بعد أن يأوي الناس إلى قيلولة الظهر، صار يحب المساء، تطل عليه كأنها القمر في تمامه، ما فتئ يحبها، ها هو ذا ينتظر قدومها.. تأخرت فأكله القلق، نسي كل كلام الليل، وضج بالحنين لعينيها الساحرتين.

دقائق وأطلت عليه باشراقتها المعهودة، خفق قلبه، جلست في الداخل، كانت ثقتها بنفسها وجرأتها مثار إعجابه بشخصيتها

القوية وحضورها المؤثر.

قالت مبتسمة سعيدة:

ـ ألم ترسم شيئاً جديداً؟!

أجاب بلا رغبة حقيقية في الكلام:

ـ لا شيء..

قفزت إلى لوحة (الساهرة)، تأملتها من جديد، قالت:

ـ إياك أن تفرط بهذه اللوحة..

قال بشيء من الانفعال وقد كره براءتها على حين فجأة:

ـ لن أتخلى عنها ولن أسلو حتى إن نسيتني هي أو شُغلت بسواي.. تطلعت إليه باستغراب أول مرة، وما لبثت بين الإحراج والحياء، أن نهضت وغادرته.

كان ذلك آخر ما كان بينهما، لكن أيعقل أن يمر على هذا الحوار الذي يبدو واضحاً في ذهنه ما يقرب من نصف قرن، وقال مع نفسه: بي حاجة إلى السلوان.. فتح محفظة صغيرة، قديمة قدم الصورة التي رسمها، واستخرج منها (خرزة) صغيرة، في تجواله المضني الطويل عثر عليها لدى بائع غريب الأطوار في حي فقير، هي ذاتها الخرزة التي وصفتها له أم ذياب، مرت خمسة أيام حتى جادت السماء بمطر مدرار، عندئذ، اتجه نحو شرفة غرفته في الفندق، ومد كفه والخرزة بين أصبعيه، وكما وصف الرجل وتنبأت المرأة، تسللت قطرات المطر إلى داخل تجويفها الحلزوني، خيّل إليه أن لونها تغير حين مُلئت بالماء، وعاد مبللاً بالمطر، وقد

استعد لأن يسلو، التفت إلى اللوحة التي رافقته خمسين عاماً، يغلفها بالورق السميك ويدور بها أينما رحل حتى صارت عبئاً عليه، لكنه لم يبعها ولم يساوم، ذات مرة، حين كاد يدعسه القطار بسببها، قال له صديقه الفنان:

- بعها وتخلص منها فقد صارت مشكلة وعقدة مستعصية يا عامر، وإذا كنت تقصد تلك الصبية قد جارت وقست وبعدت فعلام العذاب؟

إن الحب على هذا النحو ضرب من ضروب تعذيب الذات وسواها أرض واسعة وحسناوات كثار!!

قال له وهو يحتضنها لاهثاً:

- هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا..

لم يفهمه صاحبه وتركه ومضى، بينما رافقته هي في رحلته الطويلة، ولعله يريد أن يجرب السلوى الآن.. لامست فوهة الخرزة شفتيه، وحانت منه التفاتة إلى اللوحة، ولسبب غامض، أزاح الغطاء لتراه، خفق قلبه، كانت العينان ترنوان إليه باستغراب وذهول، وكمن أصيب بدوار مفاجئ رأى حركة الشفتين وهما تقولان: لا..

أسقط الخرزة فتهشمت من فورها، دنا حتى التصق باللوحة التي حالت ألوانها، قبّل الشفتين، وقال معتذراً أو كالمعتذر:

- لن أسلو.. لن أسلو..

للمؤلف

في القصة:

١ ـ قراءة في أوراق الفجر	١٩٧٧ بغداد
٢ ـ رحلة الليل الأخيرة	١٩٨٠ بغداد
٣ ـ الحداد لا يليق بالشهداء	١٩٨١ بغداد
٤ ـ زائر آخر	١٩٨٤ بغداد
٥ ـ الأعماق	١٩٨٦ بغداد
٦ ـ أيام في الذاكرة	١٩٨٧ بغداد
٧ ـ عيون الحب	١٩٩٠القاهرة
٨ ـ تحت سماء زرقاء	٢٠٠٢ بغداد

في الرواية:

١ ـ صخب البحر	١٩٨٢ بغداد
٢ ـ حدود النار	١٩٨٣ بغداد
٣ ـ العزف في مكان صاخب	١٩٨٨بغداد
٤ ـ النشور	٢٠٠٠ بغداد
٥ ـ بلقيس والهدهد	ط١ ١٩٩٥ بغداد ط ٢ ٢٠٠٨ دمشق
٦ ـ رماد الحب	٢٠٠٨ بيروت
٧ ـ سلوة العشاق	٢٠٠٨ دمشق

ALI KHAYON
LOVERS SOLACE

هذه الرواية... أيسلو المرء حبه الأول؟! أيكون بمقدوره أن يسلو ذكريات عزيزة على النفس؟!.

تلك هي المسألة التي تواجهنا في هذه الرواية الجميلة.

عامر الرسام، رسم الحبيبة في لوحة، هي صورة متخيلة للحبيبة التي صادفها بعد حين، ومهما صار إليه وضع حبيبته، وهي بين قبضتي المحنة، فإن «الرمز» أو الصورة الحبيبة، تبقى معلقة فوق رأس الرسام حتى وهو يفارق الحياة، رحلة رومانسية عذبة، يكون الحب موضوعها دائماً، على الرغم من رحيل مجنون ليلى وزواج من سببت له الجنون بمن سواه.

لكن هذه الرواية، تُثبت بالدموع واللهفة، أن المجنون لم يكن مجنوناً، وتلك هي المسألة الأخرى في فن مهمته الدهشة والإبداع.

نينوى
للدراسات
والنشر
والتوزيع